التربية و التعليم في التراث العربي

(كيف علم القدماء أبناءهم)



أ.د. عبدالله يوسف الغنيم



ذات السلاسل

التربية و التعليم في التراث العربي

(كيف علم القدماء أبناءهم)

التربية و التعليم في التراث العربي

(كيف علم القدماء أبناءهم)

أ.د. عبدالله يوسف الغنيم



ذات السلاسل

الكويت ٢٠٢٠م

ردمك: 978-9921-0-1115-9

الطبعة الأولى

الكويت: ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م



للطباعة والنشر والتوزيع

E-mail: ths@that alsalasil.Com.kw
Web site:www.that alsalasil.Com.kw


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلما أثير موضوع المستوى العام للتعليم في الوقت الحاضر يثور بين المهتمين بشؤون التربية، بل والمتابع العام، سؤال يُلح هو: «كيف علم القدماء أبناءهم؟».

وللإجابة عن هذا السؤال لابد من العودة إلى المكتبة العربية لنتعرف تلك الجهود التربوية والثقافية التي قام بها علماء أجلاء من مفكري أمتنا العربية والإسلامية، قدموا لنا تراثاً خالداً موجهاً إلى تعليم الأبناء وتثقيفهم، ولكنه للأسف لم يحظ في حاضرنا إلا بالنادر القليل من النشر والاهتمام والتطبيق، وكان حرياً به أن ينال مكان الصدارة في مجال البحوث والدراسات التربوية وحسن توجيهها فكرياً وعلمياً إلى اختيار النماذج الرائدة التي جعلت من الثقافة قوة محركة؛ وقت أن كانت مشفوعة بالتوجيه الواعي، ومقرونة بالتطبيق المناسب، فشبّ على ذلك نفر من أبناء الأمة، صاغوا حضارة جديدة لها هويتها الخاصة وإضافاتها المميزة في مختلف فروع العلم والمعرفة.

وفي تراثنا العربي العديد من الرسائل والكتب الخاصة بآداب

المعلم والمتعلم، ومن أوائل تلك الكتب: "رسالة المعلمين" لعمرو ابن بحر الجاحظ المتوفى عام (٢٥٥هـ)، وكتاب "آداب المعلمين" لمحمد بن سحنون المتوفى عام (٢٥٦هـ)، و"الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" لأبي الحسن علي بن محمد القابسي (ت ٤٣٣هـ)، ورسالة "أيها الولد" لأبي حامد الغزالي (ت ٤٥٠هـ)، وغيرها من الكتب والرسائل التي طبع بعضها وبعضها الآخر مازال مخطوطاً ينتظر طريقه للنشر.

وقد بُذلت بعض الجهود في تحقيق تلك الكتب والرسائل، وعملت بعض الدراسات لكنها لم تصل إلى اقتناع التربويين المحدثين بالأخذ بأساسيات التعليم القديم الذي يبدأ بفتح طاقة الحفظ والاستيعاب، ثم التفكر والتحليل للمعطيات التعليمية آنذاك، وكان البدء بحفظ القرآن الكريم، وتدبر آياته، ومعرفة الحديث الشريف، وإتقان اللغة العربية بمثابة القاعدة الأولى التي يؤسس عليها طالب العلم، ومن ثم ينطلق في التعرف على جوانب المعرفة المختلفة ليصل بعدها إلى التخصص والنبوغ في فن أو علم من العلوم.

والدراسات الحديثة حينما تناولت التراث القديم المتعلق

بالمعلمين والمتعلمين، لم يركز الباحثون فيهاعلى بعض المصادر التي لم تأت تحت هذا العنوان، ولكن كان لها أثرها الأكبر في التوجيه التربوي، ومنها على سبيل المثال كتاب "الحيوان" للجاحظ، وقصة "حي بن يقظان"، ورسائل "إخوان الصفا"، و"كليلة ودمنة"، وغيرها من الكتب والقصص التي تحرك فكر المتعلم، وتوسع مداركه، وتفتح له مجالات البحث.

وقد كان أصل هذا البحث محاضرة قدمتها في شهر أبريل عام ٢٠٠٤م ضمن الدورة الحادية عشرة للموسم الثقافي التربوي للمركز العربي للبحوث التربوية لدول الخليج تحت شعار "ثقافة الطالب أين موقعها من مدارسنا"، وكانت الندوة بإشراف رئيس المركز آنذاك أخي الأستاذ الدكتور مرزوق يوسف الغنيم - حفظه الله - الذي اقترح عليّ التوسع فيها وطباعتها.

وما نقدمه في هذا الكتاب هو مجرد إضاءات في هذا المجال، لعلها تفيد في التنبيه على بعض الجوانب التي أغفلها من تطرق إلى هذا الميدان.

أ.د.عبدالله يوسف الغنيم



(١)
تعليم القدماء بين التلقين والتفكير

كان المنهج المتبع في تعليم الأطفال في سنواتهم الأولى هو التدرّج في حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف وطائفة كبيرة من الكلام والشعر العربي. وكان الهدف من ذلك هو تكوين الحسّ اللغوي الفصيح، وامتلاك أدوات التفكير السليم، وتكوين الوجدان الإيماني المشبع بالقيم الأخلاقية الصحيحة، وتعميق الجانب الإيماني، وترسيخ القيم الدينية والأخلاقية، وبناء الحس الفني الرفيع الذي يُمَكِّن صاحبه من التفكير بصورة سليمة ومنهجية، والإفادة من ملكة الحفظ العالية في السنوات الأولى وتنميتها والإفادة منها في تنمية القدرة على الفهم والاستيعاب، وما يتبع ذلك من القدرة على التطبيق والتحليل والنقد.

وقد قالوا في تعليم الصغار أقوالاً كثيرة؛ قال الحسن بن علي

لبنيه ولبني أخيه: "تعلموا العلم، فإنكم إن تكونوا صغار قوم تكونوا كبارهم غداً، فمن لم يحفظ فليكتب".[1]

وقالوا حقائق بالغة الأهمية؛ من مثل:"العلم في الصغر كالنقش في الحجر"، ومثل "إنما يطبع الطين إذا ما كان رطباً".

ولم يكن التعليم – آنذاك – قائماً على التلقين والحفظ فقط، بل إنه كان يقوم أيضاً على الفهم وتنمية القدرة على التفكير والاستنباط لدى الناشئة بما يؤدي بهم إلى التحليل والتقويم ويوصلهم إلى الحقائق الخفية والخلق والإبداع.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك الماء، ولا

---

(١) يوسف بن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله. بيروت، ص٨٢.

تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (رواه البخاري ومسلم)[1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم صنف مراتب المتعلمين والفقهاء بحسب الفقه والحفظ والعطاء (التعليم)؛ فالأرض الطيبة: هي مثل الفقيه الضابط لما روى، الفاهم للمعاني، المحسن لرد ما اختلف فيه إلى الكتاب والسنة.

والأجادب: الممسكة للماء التي يستقي منه الناس، هي مثل الطائفة التي حفظت ما سمعت فقط وضبطته وأمسكته؛ حتى أدته إلى غيرها محفوظاً غير مغيّر، دون أن يكون لها فقه تتصرَّفُ فيه، ولا فهم بالردّ المذكور وكيفيته، لكن نفع الله بها في التبليغ، فبلّغت إلى من لعلّه أوعى منها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه".

(١) النووي، محيي الدين بن شرف، كتاب العلم وآداب العالم والمتعلم، تحقيق: عبدالله بدران، ص٦٣، بيروت ١٩٩٣م.

ومن لم يحفظ ما سمع ولا ضبط فليس مثل الأرض الطيبة، ولا مثل الأجادب، بل هو محروم، ومثله مثل القيعان التي لا تنبت كلأً ولا تمسك ماءً[1].

وفي هذا السياق يقول الإمام العلامة عمرو بن بحر الجاحظ في رسالة "المعلمين": إن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلِّداً، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعزِّ الثقة. والقضية الصحيحة والحُكم المحمود: أنه من أدام الحفظ أضرّ ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظُ أشرف منزله منه.

ومتى أهمل النظر لم تُسرع إليه المعاني، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه، وقلّ مكثها في صدره، وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط، والذي يعالجان به ويستعينان متفقٌ عليه، ألا وهو

---

(١) الخطيب البغدادي، كتاب الفقيه والمتفقه، تحقيق: أبوعبدالرحمن بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٩٩٦م،(٢/ ١٨٠-١٨١).

فراغ القلب للشيء، والشهوة له، وبهما يكون التمام، وتظهر الفضيلة"(١).

بهذه الكلمات الواعية، المدركة لعملية التعليم القائم على التوازن الدقيق بين عمليتي الحفظ والاستنباط لخص الجاحظ منهجاً وأسلوباً سارت عليه الأمة في تعليم أبنائها،فأنجبت طائفة كبيرة من العلماء؛ منهم الفيزيائي ابن الهيثم، والطبيب المبدع ابن النفيس، والفلكي الماهر ابن الشاطر، وغيرهم من أعلام النهضة العلمية العربية الذين تركوا بصماتهم واضحة على الفكر العلمي في عصر النهضة الأوربية.

وسنتوقف عند هؤلاء العلماء الثلاثة كمثال واضح لما أشرنا إليه:

الحسن بن الهيثم:

ولد الحسن بن الهيثم في البصرة عام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م، وتلقى تعليمه في البصرة، وأكمله في بغداد في عصر ازدهرت

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر، "رسالة المعلمين"، ضمن رسائل الجاحظ (الرسائل الأدبية)،تقديم علي أبو ملحم، دار الهلال، بيروت ١٩٨٧م، ص ٢٠٠، ٢٠١.

فيه الثقافة العلمية، وقد بدأ حياته بدراسة العقيدة والفقه، عيّن بعدها قاضياً على البصرة، ولكنه ترك القضاء متجها لدراسة العلوم والرياضيات والفلك والبصريات. وقد رحل إلى مصر بناء على استدعاء الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، الذي سمع أن عنده حلاً لفيضان النيل وذلك عن طريق بناء سد شمال أسوان، ولكنه بعد أن عايش المكان وجد أن مخططه غير قابل للتطبيق، فخاف على حياته من بطش الحاكم بأمر الله، فادعى الجنون وأجبر على الإقامة الجبرية، وبعد اغتيال الحاكم جاور الجامع الأزهر في القاهرة، وأخذ في دراسة الرياضيات والفيزياء، وتدريس الطلاب، بالإضافة إلى حرفة نسخ المخطوطات.

وقد رحل خلال حياته إلى الشام وبلاد الأندلس، واتصل بكثير من علماء عصره. وقد توفي في آخر عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م.

وقد اهتم ابن الهيثم بدراسة عدد من الظواهر الفيزيائية كالكسوف والخسوف وقوس قزح، ونقد فكرة حركة الكواكب عند بطلميوس، وفسر ذلك بشكل مختلف، وكل ذلك كان له تأثيره الكبير على علماء الفلك الأوربيين في عصر النهضة.



من مخطوط كتاب المناظر لابن الهيثم

ويعد كتاب "المناظر" الذي ألفه ابن الهيثم أنفس ما أنتج العلماء العرب في مجال الفيزياء؛ فقد قدم نظرية جديدة في الإبصار غير ما جاء به السابقون عليه من الرياضيين مثل إقليدس وبطلميوس. وينقسم الكتاب إلى قسمين كبيرين، يختص أولهما بإشراق الأضواء ورؤية المبصرات على الاستقامة، ويختص ثانيهما بانعكاس الأضواء وانعطافها وما يترتب عليهما من إدراك المبصرات في المرايا المختلفة الأشكال وفي الأجسام المشفة[1].

علاء الدين ابن النفيس:

ولد أبو الحسن علاء الدين بن أبي الحزم الملقب بابن النفيس في دمشق عام ٦٠٧هـ/ ١٢٠١م ، وتعلم في مدارسها وقرأ على علمائها اللغة والمنطق والأدب والفلسفة والعقيدة، ودرس الطب في البيمارستان النوري بدمشق على ابن الدخوار عبدالرحيم بن علي، الذي كان ناظرا على البيمارستان المذكور، وبعد أن برز في

(١) الحسن ابن الهيثم: كتاب المناظر (مقدمة المحقق عبدالحميد صبره) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٣م، ص٨، ٩.

هذا المجال انتقل إلى القاهرة فعمل في البيمارستان الناصري، ثم أصبح رئيساً للأطباء في المستشفى المنصوري بالقاهرة، وكان له مجلس في منزله يحضره أمراء القاهرة ووجهاؤها إضافة إلى أطبائها.

وفي القاهرة كتب معظم مصنفاته، ومن أهمها كتاب "شرح تشريح قانون ابن سينا"، الذي تضمن نظريته الرائدة التي اكتشف من خلالها الدورة الدموية الصغرى. ويعد هذا من أفضل الكتب التي تناولت علم التشريح ووظائف الأعضاء وعلم الأمراض، استدرك فيه ما فات ابن سينا، وفَصَّل مجمله، وصنف كتاب "الشامل في الطب"، طبع في ثلاثين مجلداً[1]، وله كتاب "المهذب في الكحل"[2]، وغير ذلك من الكتب التي كان لها أثرها الكبير في تطور الطب في عصر النهضة الأوربية. وله مؤلفات أخرى في غير مجالات الطب في الفقه والمنطق والسيرة النبوية.

---

(١) صدر عن المجمع الثقافي، أبوظبي، ١٩٩٨ – ٢٠٠٤م، بتحقيق يوسف زيدان.

(٢) من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بتحقيق محمد ظافر وفائي، الرباط ١٩٨٨م. وعلم الكحالة هو من فروع علم الطب يبحث في صحة العين وعلاج أمراضها.

الأمر الذي يجعله أنموذجا لنتاج التعليم ونظمه القديمة. وقد توفي ابن النفيس رحمه الله في القاهرة عام ٦٨٧ هـ - ١٢٨٨م.

علي بن إبراهيم ابن الشاطر:

ولد علي بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن الشاطر، في دمشق عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م، وقد توفي والده وله من العمر ست سنوات، فكفله عم أبيه علي بن إبراهيم بن يوسف بن الشاطر، الذي علمه تطعيم العاج وعلوم الفلك والهندسة والنجوم، وتتلمذ في هذه العلوم على آخرين في الشام، ثم رحل إلى مصر والإسكندرية. وقد أصبحت له مكانة علمية بارزة بين معاصريه قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر، لما اخترعه من الآلات والأجهزة الفلكية ولمؤلفاته المميزة، حتى قال عنه النعيمي في كتابه "الدارس في تاريخ المدارس": "إن من تَقَدَّمَهُ من الأفاضل عند جبل علمه هباء، ولو رآه إقليدس لما كان عنده إلا نقطة من خطه، أو أرشميدس لرأى شكله قطاعاً في تحريره وضبطه ".

لقد تجلت نشاطات ابن الشاطر العلمية والتقنية في تطوير الآلات الفلكية، وفي نظرية حركة الكواكب، وكان في ابتكاره للربع العلائي والربع التام تطوير لآلات الحساب المتداولة في زمنه، وهي آلات مبتكرة ومصممة ميكانيكياً لتعطي حلولاً رقمية للمشكلات الأساسية لعلم الفلك الكروي، وهذه الأدوات هي بالضبط التي استعملها كوبرنيكوس الذي عاش بعد قرن من ابن الشاطر، بغض النظر عن اختلافهما في التصورات العامة للنظام الكوني.

لقد كان ابن الشاطر وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم من علماء النهضة العربية نتاج تلك المناهج التي اتبعها العرب في تدريس أبنائهم،ونتاج ثقافة منهجية الطابع مكَّنت الآخذين بها من التميز والعطاء العظيم. والقارئ لكتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي، وغيره من كتب التراجم العربية، يدرك قيمة ذلك المنهج وأثره في تكوين كثير من الشخصيات العلمية التي أثرت الحضارة العربية والإنسانية بإنتاجها الغزير في مجال العلم والأدب والثقافة بشكل عام.

ونخلص مما تقدم إلى أن تعليم القدماء اتسم بمرحلة تأسيسية؛ يتم فيها تكوين الطفل وفق قدراته واستعداداته، وخلق قاعدة راسخة للتعلم وفق إطار أخلاقي وفني؛ ينطلق من بعده منهم من يستزيد من الدراسة والبحث، ويتجه بعضهم الآخر إلى عمل من الأعمال يتحقق له من خلاله تدبير أمر معيشته، أو يجمع بعضهم بين العلم والعمل كما لاحظنا في سير كثير من العلماء.

(٢)
التوجه نحو التخصص

كان هذا التوجه يمثل مرحلة اختيارية، يترك فيها لطالب العلم أن يتجه – بعد تأسيسه – إلى الوجهة التي يراها مناسبة لميوله العلمية. وهو الأمر الذي نلمسه عند قراءة ترجمة ابن الهيثم وابن النفيس وابن الشاطر وغيرهم من العلماء؛ فقد كان في إمكانهم التوجه إلى دراسة الأدب أو التاريخ أو العلوم النظرية الأخرى، غير أن ميولهم، وتأثيرات أساتذتهم، وتجربتهم مع الحياة قد وجهتهم إلى العلوم الطبيعية.

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك توجيه منهجي لهؤلاء جميعا ولغيرهم من العلماء؛ فقد اهتم القدماء بتوسيع مدارك الطالب وفتح آفاق البحث أمامه، فكُتبت عديد من الرسائل التي من شأنها تأسيس الطالب في مجال العلوم، وحثه على التدبر والاعتبار والتفكير في عناصر الكون المختلفة، ونخص منها

تلك الرسائل الموجهة إلى طالب العلم في بداية تكوينه، والتي كتبها علماء أو معلمون، أو توصيات سجلها الآباء لأبنائهم.

وأمثلة ذلك في التراث العربي والإسلامي كثيرة، ولعل من أوائل ما وصلنا من ذلك تلك الجهود التي بذلها عمرو بن بحر الجاحظ؛ إذ يعتبر كتابه "الحيوان" قاعدة معلومات ما زالت تحتفظ بقيمتها حتى هذا اليوم، وقد كان ذلك الكتاب زاداً مهماً لطالب العلم، ناهيك عن بقية كتبه ورسائله التي أثنى عليها العلماء وأنزلوها المنزلة الرفيعة. وسنتوقف هنا عند كتاب من كتبه يُعدُّ من أوائل النماذج الموجهة للطلاب، يحثهم فيه على التفكر في هذا الكون، وتدبر أسبابه والنظر في عناصره المختلفة نظرة العالم المتبصر، وهذا الكتاب هو كتاب "الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير"[1]. ويقول الجاحظ في غرضه من الكتاب: "إن أناساً حين جهلوا الأسباب والمعاني، وقصروا في

---

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٥.

الحقيقة عن تأمل الصواب والحكمة فيهما جنحوا إلى الجحود والتكذيب، حتى أنكروا خلق الأشياء، وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء، وفرشت أحسن فرش، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب وتقدير، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم، فلا يبصرون هيئة الدار وما أُعد فيها، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه وأُعد لشأنه، وهو جاهل بالمعنى فيه، فتذمر وتسخط وذمّ الدار وبانيها"[1].

وقد وضع الجاحظ كتابه في فقرات يبدأ معظمها بكلمة "فكر" أو "تأمل" أو "انظر"، وقد بدأ أولاً بالكون وما يتصل به: فكِّر في لون السماء - فكِّر في تنقل الشمس - فكر في هذه النجوم... إلخ. ثم انتقل إلى الأرض: فكر في خلق هذه الأرض- انظر إلى هذه الجبال، فكر في هذه المعادن... إلخ. ثم

(١) المصدر السابق: ص٥.

تكلم عن أسباب نزول المطر، وظهور النبات، والحكمة في خلق الشجر، وانتقل بعدها إلى الحديث عن عالم الحيوان، ثم إلى عالم الإنسان. وفي كل جانب من هذه الجوانب كان الجاحظ يتوقف ويطلب إلى طالب العلم أن يفكر معه ويتأمل في خصائص الخلق وعجائبه: وطرح أكثر من سبعين تساؤلاً في كل منها مشروع للبحث والنظر والاستقصاء.

ومثال لذلك قوله:

"فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها، كمثل الثريا والشعرى، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد وتحتجب وقتاً واحداً لم يكن لكل واحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض أمورهم، كمعرفتهم الآن بما يكون في طلوع الثريا والجوزاء إذا طلعت واحتجابها إذا احتجبت. فصار ظهور كل واحد منهما على حدته. فكما جُعلت الثريا وأشباهها تظهر حيناً وتحتجب حينا لضروب من المصلحة، كذلك جُعلت بنات نعش ظاهرة ولا

تغيب لضرب آخر من المصلحة، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر معاً. وذلك أنها لا تغيب ولا توارى أصلاً، فهم ينظرون إليها متى أرادوا ويهتدون بها حيث شاؤوا. وصار الأمران جميعاً على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة"[1].

كان هذا أنموذجا واحدا من جملة كبيرة من الأسئلة التي أثارها الجاحظ حول مختلف الظاهرات التي تثير فكر طالب العلم، وتدفعه نحو استجلاء الأسباب والعلل، وتؤدي به إلى الإيمان بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً حكيماً دبره بحكمة وبمنهاج معروف، موردا الحجة بعد الحجة على من ينكرون ذلك ببيان واضح لا لبس فيه.

ثم يختم كتابه بالتعليق على مصطلح "كوزموس"(Cosmos) الذي أطلقه اليونان على الكون؛ فيقول: "لقد رأى اليونان ما في العالم من التقدير والنظام، ولم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظاماً

---

(١) المصدر السابق، ص١٠.

بل سموه (زينة)، ليخبروا أنه مع ما هو عليه من الصواب والإتقان فهو في غاية الحسن والبهاء"[1].

وهـذا التوجيه المبني على إثـارة الأسئلة ولفت نظر الباحث والمتعلم إلى مجالات متعددة للبحث نجده أيضا في رسالة الجاحظ "التربيع والتدوير"، التي يرد فيها أسئلة عن الرياضيات والموسيقى والمرائي والإبصار والألوان والأديان والمعرفة وطرقها والفلسفة والتاريخ والأقاليم والسكان والآثار القديمة. وغير ذلك من الموضوعات التي تنير طريق المتعلم وتفتح له آفاق المعرفة، ومن أمثلة ذلك:

- مذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن اللحف؟ وأي هذه الأودية أقدم: أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم جيحان أو سيحان أم مكران؟ وأين تراب هذه الأودية؟ وأين طين ما بين سفوح الجبال إلى أعاليها؟ في أي بحر كُبِسَت وفي أي هبطة شحنت؟ وكم نشأ لذلك من أرض وحدث من عين؟

(١) المصدر السابق: ص٦٧.

- مذكم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية؟ وبعد كم بطن اسْوَدَّ الزنجي وابْيَضَّ الصقلبي؟

- من كان باني ريام؟ ومن أنشأ كعبة نجران؟ ومن صاحب غمدان؟ ومن باني تدمر؟ ومن صاحب الهرمين؟

- خبرني عن جوهر الأرض، وعن جميع الفلز؛ أشيء مفروغ من خلقه أم أرض يستحيل إليه؟

- من سمى الجبر بالجبر، والجذر بالجذر؟ ومن أول من عد إلى عشرة، وجعل العشرة منتهى وغاية؟ ثم ضاعفها وجعل غايات الأعداد عشر العشرات، وعشرات عشرات العشرات أبدا؟..

ويختم الجاحظ رسالته في "التربيع والتدوير" ببيان حاجة العقل إلى الشحذ؛ فيقول:"والعقل حفظك الله أطول رقدة من العين، وأحوج إلى الشحذ من السيف، وأفقر إلى التعهد، وأسرع إلى التغير، وأدواؤه أقتل، وأطباؤه أقل، وعلاجه أعضل. فمن

تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته، ومن رامه بعد التفاقم لم يدرك شيئا من حاجته. ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب..".

وأن تعلم أن العلم لا يجود بمكنونه، ولا يسمح بسره ومخزونه إلا لمن رغب فيه لكرم عنصره، وفضله لحقيقة جوهره، ورفعه عن التكسب وصانه عن التبذل، وأنه لا يعطيك خالص الحكمة حتى تعطيه خالص المحبة"[1].

---

(١) رسالة التربيع والتدوير ضمن كتاب رسائل الجاحظ، دار الهلال، بيروت ١٩٨٧م، ص٤٨٨.

(٣)
التعلم الذاتي واكتساب المعرفة

وهو أنموذج تربوي وجَّه به العلماء والمربون طلاب العلم، يتمثل في بيان قيمة العقل في الوصول إلى المعرفة، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك قصة "حي بن يقظان" التي ابتكرها في البداية الشيخ الرئيس علي بن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧م)، وكتبها في أثناء سجنه، وفي هذه القصة يحكي ابن سينا رحلة العقل الإنساني إلى الملكوت الأعلى من خلال شخصية "حيّ" الذي يرمز به إلى النوع الإنساني، وهو ابن يقظان أي العقل اليقظ في الإنسان.

وقد راجت قصة ابن سينا في الثقافة العربية الإسلامية، وسار على منهجه عدد من العلماء، لعل من أبرزهم محمد بن عبدالملك بن طفيل، الذي تأثر بالفكرة وبعنوانها، لكنه لم يلجأ إلى الأسلوب الرمزي الذي جاء في قصة ابن سينا، وجاءت قصة حي بن يقظان عنده أطول وأكثر تفصيلاً، قدم من خلالها

١١٨٠

PHILOSOPHUS AUTODIDACTUS
SIVE
EPISTOLA
ABI JAAFAR,
EBN TOPHAIL
DE
HAI EBN YOKDHAN.
In quâ
Oſtenditur quomodo ex Inferiorum contemplatione ad Superiorum notitiam Ratio humana aſcendere poſſit.

Ex Arabicâ in Linguam Latinam verſa
Ab EDVARDO POCOCKIO A.M.
Ædis Christi Alumno.





OXONII,
Excudebat *H. Hall* Academiæ Typographus. 1671.

غلاف الطبعة الأولى من كتاب «حي بن يقظان»، عام ١٦٧١م

مجموعة من الأفكار المتعلقة بالبيئة والتشريح،وطبائع الحيوان، والفلك، وغير ذلك من المعارف التربوية والعامة، جعلها محل اهتمام خاص من العلماء الغربيين؛ فقد ترجمها "بوكوك" إلى اللاتينية، ونشرت مع النص العربي في أكسفورد عام ١٦٧١م، وأعيد طبعها عام ١٧٠٠م، ثم صدرت لها عدة ترجمات باللغات الهولندية والألمانية والأسبانية والفرنسية وغيرها. وقد أثرت هذه القصة تأثيراً واضحاً في مناهج التربية الغربية، ونخص بالذكر مبادئ روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م) وبستالوتزي (١٧٤٦ - ١٨٢٧م) التي كانت تقوم على إثارة دوافع الإنسان نحو الطبيعة، بدءاً من حيز البيئة المحلية إلى العالم أجمع بالتدريج، وتوجيه الطلاب نحو استخدام حواسهم ليتعلموا من خلال قيامهم بأنشطة علمية وميدانية بدلاً من الاعتماد على حفظ الحقائق والمعلومات.

عاش ابن طفيل في النصف الأول من القرن السادس الهجري في مدينة غرناطة في الأندلس، ووصف بعلمه الواسع وإحاطته بعلوم الفلك والرياضيات، والطب والشعر، كما

عُرف بعباراته الرقيقة وأسلوبه الرشيق. وقد شغل مناصب سياسية متعددة كان آخرها وزيراً لأمير الموحدين أبي يعقوب بن عبدالمؤمن صاحب المغرب، ثم عند ابنه المنصور من بعده إلى أن توفي عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥م. وقصة "حي بن يقظان" تحكي مراحل التطور الطبيعي للإنسان على النحو التالي:

ولد حي بن يقظان في جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء، ومن الكتَّاب من قال إنه ولد من غير أب أو أم، ومنهم من قال إنه ولد في جزيرة من أخت ملك خافت من أخيها على ولدها فقذفته في اليم، وجرفه المد إلى جزيرة قريبة، حيث التقطته ظبية كانت قد فقدت صغيرها، فحنت عليه وتكفلت به،واغتذى بلبن الظبية، فتربى ونما بين الوحوش منعزلاً عن الناس، وتدرج في المشي. ومازال معها يحاكي أصوات الظباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع، ويقلد أصوات الطير وسائر أنواع الحيوان، وفي ذلك إشارة إلى نشأة اللغة الطبيعية، وكان يتصرف مثل الحيوانات بتقليد أفعالها

ومحاكاة طبائعها حتى كبر وترعرع، وعرف كيف يحصل على غذائه ويستر نفسه ويبني بيته، ثم اهتدى إلى قدح النار واستعمال الآلات والأدوات اللازمة لمعاشه، واستطاع بالملاحظة والفكر والتأمل أن يكتشف بنفسه مذهباً فلسفياً يوضح به سائر حقائق الطبيعة(١).

وكان ابن طفيل لا يمر بوصف أمر من الأمور المذكورة إلا وقدّم فيه وصفاً دقيقاً معتمداً فيه على ثقافته الواسعة، ويتضح بجلاء استناده إلى العلوم الطبيعية وما وصلت إليه من معرفة في التشريح وفي تطور الجنين في الرحم وفي وظيفة القلب. ثم الحاجة إلى العقل في تفسير الأشياء وتحليل الأسباب.

وقد رأى بعض الباحثين أن ابن طفيل قصد في كتابه شرح أسرار الحكمة المشرقية، وأنه لما رأى أن من الصعب التعبير عن ذلك بالمباحث والاصطلاحات النظرية وجد أن الأسلوب

---

(١) انظر حول هذا الموضوع التحليل القيم الذي كتبه كل من الدكتور جميل صليبا، والدكتور كامل عياد في مقدمتهما لكتاب "حي بن يقظان" لابن طفيل الأندلسي، جامعة دمشق، الطبعة الخامسة ١٩٦٢م، ص٢٢ - ٤١.

القصصي الرمزي هو الأنسب في بيان ما أراده، بعيدا عن الأساليب المعقدة التي يكتب بها الفلاسفة وعلماء الكلام.

وإذا ما تركنا هذا التفسير في أغـراض قصة "حي بن يقظان" فإن الجانب التربوي والتثقيفي لطالب العلم هو المقصد الأساسي؛ فقد مثّل ابن طفيل في ذلك أول ظهور الإنسان على وجه الأرض، ومدارج ترقيه الفكري إلى أن وصل إلى ما وصل إليه من المعارف المختلفة، مؤكداً أهمية العقل والتجربة التي قادته إلى صنع حضارته وترسيخ مكانته بين مختلف الأحياء.

(٤)

توجيهات ووصايا تربوية وتعليمية

كان ما ذكرناه أمثلة واضحة على مناهج التعليم والأساليب المتبعة في فتح آفاق عقول الطلاب للاستزادة من المعرفة والعلم. وقد صاحب هذه المناهج وضع مجموعة كبيرة من الكتب والرسائل التي تحمل التوجيه والنصح امتدت عبر قرون من التاريخ الإسلامي. وسوف نلقي الضوء على بعض الأمثلة، وللباحث أن يطلب المزيد منها في أخابير تراثنا المخطوط والمطبوع. ولابد من الإشارة إلى أن مخطوطات تلك الكتب والرسائل لا يقصد باحث مكتبة من المكتبات التي تحتفظ بالمخطوطات العربية في العالم إلا وجد شيئاً منها، وسنتوقف مشيرين إلى ذلك في بعض ما سنورده كأمثلة على ذلك.

وفيما يلي مجموعة من أهم الكتب والرسائل التي كتبت في هذا الموضوع:

(١) كتاب المعلمين لعمرو بن بحر الجاحظ (توفي ٥٥٢ هـ / ٨٦٨م):

اهتم بهذا الكتاب معظم المشتغلين بتراث الجاحظ، ونشرت فصول منه على هامش كتاب الكامل للمبرد المطبوع في القاهرة عام ١٣٢٣هـ، وقد درس مخطوطات هذا الكتاب ومضمونه بشيء من التفصيل إبراهيم خليل جريس، ونشره مع كتاب "في الرد على المشبّهة" في عكا بفلسطين عام ١٩٨٠م.

ولم يصلنا الكتاب كاملا، وتوجد منه شذرات متفرقة في كتب التراث، لكن ما وصلنا فيه بيان بآراء الجاحظ في المعلمين، وما ينبغي أن يكون عليه نهج التعليم، وهو يبين أهمية المعلمين والمؤدبين في تربية النشْء وفي نشر العلم والأدب. والقارئ لكتبه يدرك أنه ينطلق من فكرة كان هو أحد حاملي لوائها، فمعظم كتبه مبنية على إثارة الفكر وإنارة طريق العلم للباحثين.

ومع أن الكتاب أو الرسالة لم تصلنا بشكلها الكامل فإن بإمكاننا أن نقسم مباحثها إلى مقدمة وبابين؛ يبحث في الأول

أهمية المعلمين، ويبيّن فضائلهم، ويتناول في الثاني منهاجه التعليمي والتربوي الذي يقدمه للمعلم والمؤدب والوالد[1].

ويتضمن الكتاب مجموعة من التوجيهات المهمة منها:

١- ضرورة الاهتمام بالمعلمين والمؤدبين، ودعوة أصحاب العلم والأدباء إلى العمل في هذه المهنة، وذلك لحاجة الناس إلى المعلمين في ميادين الحياة المختلفة.

٢- توجيه المعلمين نحو غرس روح التفكير والاستنباط في الطالب وعدم الاعتماد على الحفظ فقط، وهو ما أشرنا إليه في موضع سابق من هذا البحث.

٣- يدعو الجاحظ إلى الإكثار من القراءة والسماع للكلام الشريف لتقوية ملكة التعبير، وهذا من شأنه تزويده بخزينة من الألفاظ التي تدور في مسامعه وتغيب في قلبه، فيستطيع من خلالها أن يؤدي المعاني على الوجه الدقيق الخالي من التكلف.

ويرى أن شر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ

---

(١) إبراهيم خليل جريس: كتاب المعلمين، عكا ١٩٨٠م، ص٥٣ من مقدمة المحقق، وص ٥٩، ٧٢ من المتن.

المعنى، عشقا لذلك اللفظ، وشغفا بذلك الاسم،حتى صار يَـجُرُّ إليه المعنى جرّاً ويلزق به إلزاقاً، فمن الضرر أن يتحفظ ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل، ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني، فيخرج تأليفه مضطرباً منقطع النظام.

وأما النحو فيرى الجاحظ أن الصبي لا ينبغي أن ينشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه أو شعر إن أنشده، وشيء إن وصفه،وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به.

وأن يعرف الصبي حجج الكتّاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأن يذوق حلاوة الاختصار الذي لا يحوج إلى التأويل والتعقيب.

ينصح الجاحظ والد الصبي أن يتَّبع طريق الوسط في تربيته؛ فلا يُكره الصبي على الدرس فَيُبغض إليه الأدب، ولا يهمله فيعوِّده على اللهو، كما يحذره من قرناء السوء لأن في مصاحبتهم الفساد والبوار.

وأن يختار الوقت المناسب لتوجيهه وتأديبه، وأن تكون علاقته بابنه علاقة مودة ومحبة. ويرى أن إثقال كاهل الصبي بالتدريس والتأديب قد يؤدي إلى عكس ذلك. وأن على الوالد أن يحرص على "استخراج مكنون محبة ابنه بِبِرِّ اللسان وبذل المال" وأن يكون كل ذلك بمقدار[1].

وهكذا يكون كتاب المعلمين للجاحظ هو الرائد الأول لبيان فضل المعلمين وتوجيههم نحو التربية الصحيحة المتوازنة التي من شأنها تهيئة الصبيان وإعدادهم للحياة في مجالاتها المختلفة.

(٢) كتاب «آداب المعلمين» لمحمد بن أبي سعيد سحنون (٢٠٢هـ/ ٢٥٦هـ)[2]

ولد ابن سحنون في القيروان، ودرس على يد أبيه الذي كان فقيه أفريقية (تونس) بلا مدافع، وكان ابن سحنون يقول لمعلم

---

(١) كتاب المعلمين للجاحظ، مقدمة المحقق ص٥١،والمتن ص ٨٦.

(٢) محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، تونس، ١٩٧٢م.

ابنه:" لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام، فليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف، وإني أرجو أن يكون نسيج وحده، وفريد زمانه، واتركه على نحلتي".

وبعد أن حفظ محمد بن سحنون القرآن والعلوم الضرورية درس الفقه على يد والده وعدد من علماء عصره، ثم أدى فريضة الحج، والتقى في مصر التي أقام فيها مدة بعدد من الفقهاء؛ منهم المزني صاحب الإمام الشافعي، وكان مجلسه في مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط كثير الازدحام.

ثم قصد الحجاز، وأدى فريضة الحج، ولقي في المدينة عدداً من رواة الحديث وأصحاب مالك وجملة من أئمة العلماء. وبعد عودته انصرفت عنايته للتأليف، بالإضافة إلى إلقاء الدروس بجامع عقبة بن نافع أو في بيته، وبعد وفاة والده سحنون عام ٢٤٠هـ جلس في مجلسه، وتصدر للرئاسة العلمية، وقصده الطلاب من كل صوب.

ويمكن تصنيف كتاب آداب المعلمين لابن سحنون ضمن كتب الحسبة على المعلمين؛ وذلك لما اشتمل عليه من أحكام

فقهية تتعلق بهذه المهنة، وهو الأمر الذي سوف نفصله عند الحديث عن كتب الحسبة.

وقد اشتمل كتاب "آداب المعلمين" على عدد من التوجيهات؛ منها:

١- تعليم القرآن الكريم وما يتصل به هو من الأمور الواجبة التي على المعلم أن يحرص عليها في أول مراحل التعليم[١]. ثم تأتي أمور اختيارية كالحساب، الذي عده من الأمور الأصولية الضرورية شرعا، ثم الشعر والآداب العربية والتاريخ[٢]. وقد جعل الخط الحسن من تمام المنهج التعليمي. ولا بأس أن يعلمهم الخطابة إن أرادوا، وهو توجيه رائد بالنسبة لتعليم ذلك الزمان[٣].

٢- العدل بين الصبيان فقيرهم مع غنيِّهم، لا يفضِّل بعضهم على بعض ولو تفاضلوا في الجُعل.[٤]

(١) استغرق هذا الموضوع الجزء الأكبر من كتاب آداب المعلمين (ص ٧٥ - ٨٣).
(٢) كتاب آداب المعلمين: ص ١٠٢.
(٣) المصدر السابق: ص ١٠٤.
(٤) المصدر السابق: ص ٤٩، ٨٤.

- عقد ابن سحنون فصلا فيما جاء في الأدب أو العقاب، ما يجوز منه وما لا يجوز؛ فجعل هناك ضوابط لتأديب الصبيان، وأن يكون الأدب على قدر الذنب، ولا يضربهم المعلم وقت غضبه، ولا يجاوز في الأدب ثلاثاً إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذى أحداً، ويؤدبهم على اللعب والبطالة، ولا يجاوز بالأدب عشرة. وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثة.[1] ولا يجوز أن يضرب رأس الصبي ولا وجهه، ولا يجوز أن يمنعه طعامه وشرابه إذا أُرسل وراءه.[2]

وبالإضافة إلى ذلك هناك مجموعة من التوجيهات الخاصة بحقوق المعلم عند ختم القرآن والأحكام الخاصة باعتراض الأب على درجة تحصيل ولده، وكذلك ما يتعلق بالإدارة المدرسية؛ مثل مكان التعليم، والعطلات المدرسية، ولوازم الكتّاب، وغير ذلك من الموضوعات.

---

(١) المصدر السابق: ص ٨٨- ٩٤.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٠.

(٣) الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين لأبي الحسن علي بن محمد القابسي القيرواني (٣٢٤هـ/٤٠٣م) - (٩٣٥م/١٠١٢م)

نشأ القابسي في القيروان، وهو من علماء المذهب المالكي، وصار رئيساً للمدرسة المالكية بالمغرب الإسلامي، وهي المدرسة التي أسسها العالم الجليل سحنون بن سعيد (١٦٠ - ٢٤٠هـ / ٧٧٦ - ٨٥٦م). وقد ارتحل القابسي إلى المشرق سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م، لأداء فريضة الحج، ولم يعد إلى القيروان إلا بعد نحو خمس سنين، اتصل خلالها بكبار العلماء في مصر والحجاز، وسمع منهم فقه الإمام مالك وصحيح البخاري، وقد لفت أبو الحسن القابسي إليه الأنظار بما كان يتمتع به من استقامة وورع، فقد كان عالماً، عابداً، زاهداً، كثير الصيام والتهجد بالليل، مع قناعة وتواضع، وخدمة أصحابه والإنفاق عليهم[١].

(١) القابسي، أبو الحسن علي بن محمد، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، مقدمة المحقق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٦م، ص٧ وما بعدها.

وكتاب القابسي عن المعلمين والمتعلمين يأتي متمِّماً ومفصلاً لرسالة آداب المعلمين لمحمد بن سحنون، وقد أعاد ترتيب موضوعات تلك الرسالة وفقراتها لتكون مرتبة بشكل منهجي. وكتاب القابسي أيضا يدخل في باب الحسبة على المعلمين، وتضمين العنوان عبارة "وأحكام المعلمين والمتعلمين" فيه دلالة واضحة على ذلك، ويؤكد ما ذكرناه أن الأحكام الواردة في الكتاب تنصب على أحوال المعلمين، وجاء ذكر المتعلمين ضمناً عند بيان علاقة المعلمين بهم. وهو مع ما يورده من أحكام شرعية يقدم مبرراته التربوية التي من شأنها إصلاح المتعلم وبناء شخصيته، ونلاحظ ذلك في كلامه عن الثواب والعقاب، فالثواب لا يتعدى الاستحسان والتشجيع تحريكاً لهمم الطالب، أما العقاب؛ فقد بيّن القابسي بشأنه شروطاً واضحة وأحكاماً جليَّة؛ فهو يدعو المعلم إلى عدم المبادرة بضرب الصبي إذا أخطأ وإنما ينبهه مرة بعد أخرى، وبعدها يلجأ للعقاب، مبيناً حدوده ودرجاته. ونهى القابسي – ومن قبله ابن سحنون – عن أسلوب

الحرمان من الطعام والشراب، وأن يأذن لهم بالانصراف إلى تناول الغداء في وقته ثم يعودون.

وقد أشرنا آنفاً إلى أن جوهر كتاب القابسي مبني على كتاب آداب المعلمين لابن سحنون، ولهذا لا نرى إيراد مزيد من التفصيل عنها.

وقد كان هذا الكتاب محلَّ اهتمام الباحثين مثل الهادي روجي إدريـس، الذي نشر نصه في مجلة معهد الاستشراق الفرنسية (المجلد١٢، عام ١٩٥٤م، ص ص ١٧٣ – ١٩٨)، ثم نشر في ملحق كتاب "التربية في الإسلام" للدكتور أحمد فؤاد الأهواني (القاهرة ١٩٥٥م، ص ص ٣٤٧– ٢٦٥)، وتناوله كذلك بالدراسة والتحليل عدد من الباحثين في مجال الفكر التربوي الإسلامي.

(٤) كتاب السياسة للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبدالله ابن سينا (٣٧٠-٤٢٧هـ)

ولد ابن سينا في قرية أفشنة القريبة من بخارى الواقعة في

جمهورية أوزبكستان حالياً. وقد اهتم به والده ، فأحضر له معلماً للقرآن ومعلماً للأدب، وأكمل حفظ القرآن في العاشرة من عمره، ودرس الشريعة والفقه والمنطق والفلسفة،وفي سنِّ الثالثة عشرة اتجه نحو دراسة الطب، وأصبح طبيباً وهو في سن الثامنة عشرة. وتعددت مواهبه، فألف في فنون مختلفة؛ مثل الفلك والكيمياء والمنطق، بالإضافة إلى الطب الذي اشتهر به، ويعد كتابه "الشفاء" موسوعة بالغة الأهمية في الطبيعيات. وسنشير في مبحث قادم إلى دوره في مجال النظم التعليمي.

والذي يقرأ ترجمته لنفسه في كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة يدرك مدى معاناته في تعليم نفسه وتثقيفها تلك الثقافة الموسوعية والخاصة، التي مكنته من الوصول إلى تلك المرتبة العلمية الرفيعة التي شهد له العالم بها. وتعد سيرته الذاتية التي أملاها على أحد تلامذته أنموذجا حيا لمسار ذلك العالم التعليمي والمنهج الذي ارتضاه لنفسه.

أما عن كتاب "السياسة" فلا يمكن القول إنه مختص بالتعليم

والمتعلمين، كما هو الشأن في الكتب المعروضة في هذا المبحث؛ فهو يتضمن ما تقتضيه سياسة الإنسان فيما بينه وبين الطوائف المختلفة في مجتمعه. ويبدأ ببيان ضرورة السياسة وأهميتها في تقدم المجتمع، فيعقد فصولاً؛ منها: في سياسة الرجل نفسه، وفي سياسة الرجل دخله وخرجه، وفي سياسة الرجل أهله،وفي سياسة الرجل ولده. وفي سياسة الرجل خدمه. ويعد ما كتبه عن "سياسة الرجل ولده" من أبلغ نصوص التراث العربي في مجال التربية والتعليم؛ يقول ابن سينا : "وينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين ، بصيراً برياضة الأخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان وقوراً رزيناً، بعيداً من الخفة والسخف، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي، غير كزٍّ، ولا جامد، بل حلواً لبيباً ذا مروءة ونظافة ونزاهة، قد خدم سراة الناس وعرف ما يتباهون به من أخلاق الملوك،و يتعايرون به من أخلاق السفلة ، وعرف آداب المجالسة و آداب المؤاكلة ،و المحادثة و المعاشرة.وينبغي أن يكون مع الصبي في مكتبه صبية من أولاد الجلة (الطبقة المتميزة)، حسنة آدابهم،مرضية عاداتهم، فإن الصبي

عن الصبي ألقن، وهو عنه آخذ و به آنس. وانفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما، فإذا راوح المؤدب بين الصبي والصبي كان ذلك أنفى للسآمة وأبقى للنشاط وأحرص للصبي على التعلم والتخرج"[(١)].

كان ذلك مثالاً لما ذكره ابن سينا في مجال تربية الأولاد وتعليمهم، وهو ما لم نجده عند كثير ممن كتب عن آداب المعلم والمتعلم.وقد وجدنا – تعميما للفائدة – إيراد نص ابن سينا كاملا في ملحق خاص بهذا الكتاب.

(٥) وصية أبي الوليد التجيبي الباجي إلى ولديه (٤٠٣ هـ - ٤٧٤هـ):

ولد سليمان بن خلف بن سعد التجيبي الباجي في بطليوس بالأندلس، وانتقل منها جده إلى باجة فنسب إليها. وبعد أن تلقى العلم على عدد من شيوخ الأندلس رحل أبو الوليد إلى المشرق عام ٤٢٦هـ، فأقام في مكة يأخذ علم الحديث مع أبي ذر الهروي ثلاث

---

(١) ابن سينا ، علي بن الحسين، كتاب السياسة ،تقديم وتعليق علي محمد إسبر، دمشق، ٢٠٠٧م،ص ٨٤، ٨٥.

سنوات، ثم رحل إلى بغداد وأقام فيها ثلاث سنوات أيضاً؛ يدرس الفقه والحديث، ويسمع من فقهائها. وغادر بعد ذلك إلى الموصل ودمشق ومصر، ودرّس فيها الحديث والفقه والأصول والأدب، وبعد عودته إلى الأندلس عام ٤٣٩ هـ التف حوله طلبة العلم؛ فكان من تلاميذه ابن عبدالبر وابن حزم وأبو بكر الطرطوشي وغيرهم من أعلام علماء الأندلس، ولما ذاع صيته اتصل به الحكام، وتولى القضاء في أماكن متفرقة من الأندلس، وبذل جهوداً في توحيد كلمة ملوك الطوائف وجمع شملهم. وقد ترك سليمان بن خلف الباجي تراثاً مهماً من المؤلفات في مجالات الحديث وفقه الإمام مالك وأصوله وتراجم رجاله وغير ذلك، وكان من بينها وصيته التي كتبها برسم ولديه، اهتم فيها بالجانب التعليمي والخلقي معاً،وجاءت في قسمين:

الأول – فيما يلزمهما من أمر الشريعة، وما يتطلبه دين المرء من واجبات، وابتدأ بشرح السياسة التعليمية التي يجب على الطالب اتباعها، ويُجمل هذه السياسة في حفظ القرآن الكريم وحفظ الحديث النبوي الشريف، ومعرفة ما كان منه صحيحاً وما كان منه

غير صحيح، ودراسة علم أصول الفقه الذي هو أصل لمعرفة القرآن ومعرفة الحديث. ويوجب على الطالب أن يتدرب تدريباً سليماً على معرفة طرق النظر وتصحيح الأدلة وإقامة البرهان، ويبدي رأيه فيما يتعلق بدراسة الفلسفة، التي لا يبيح مطالعتها إلا على سبيل التحقق من بطلانها وعدم صلاحيتها لأن تكون قانوناً صالحاً.

وهذا ما كان شائعاً في ذلك العصر، إذ لم يكن يُسمح فيه بمثل تلك الدراسات إلا لمن نضج عقله، وأصبح قادراً على صيانة نفسه ودينه من آراء الفلاسفة والمنطقيين، ويبدو ذلك واضحاً في وصية الباجي لأولاده: "وأحذركما من قراءتها ما لم تقرءا من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فساده، وضعف شبهه، وقلة تحقيقه".

وأما الفلك فهو يبيح فقط الدراسات المتعلقة بتعديل الكواكب، ومعرفة بروجها ومنازلها، وغير ذلك من الحسابات المتعلقة بحركاتها. ويرى في وصيته أن من يعتقد أن هناك للنجوم والأفلاك من أحداث في الكون مخالفٌ للشريعة، ويعد من جملة المارقين في الدين.

أما القسم الثاني من الوصية فيشتمل على وصايا ومواعظ

خلقيه كريمة،وما ينبغي أن يكونا عليه من أمور دنياهما، ويجريان عليه في علاقتهما مع من يحيط بهما من الأهل والجيران، بل وبينهما وبين رجال الدولة والسلطان.

ومن أجل ذلك كان لتلك الوصية أثر كبير في الأوساط العلمية في الأندلس؛ فقد أخذت سبيلها إلى تلاميذه الذين كانوا يقرؤونها في حلقات دروسهم،ثم تعدى تأثيرها إلى الأجيال اللاحقة. وممن تأثر بها واقتفى أثرها لسان الدين ابن الخطيب(توفي سنة ٧٧٦هـ)؛ فقد كانت وصيته لأولاده مطابقة إلى حد كبير لوصية أبي الوليد الباجي لولديه.

والنسخة الوحيدة الموجودة منها الآن محفوظة ضمن مخطوطات مكتبة الإسكوريال تحت رقم ٧٣٢، وهي ضمن مجلد يحتوى على عدة رسائل كتبت بعد وفاة الباجي بنحو ٢٧٥ سنة، وقد قام بنشرها مع مقدمة اضافية عنها الأستاذ جودة عبدالرحمن هلال، وعلى مقدمته اعتمدنا في عرضنا لهذه الوصية.[١]

---

(١) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد:"مقدمة لوصية القاضي أبي الوليد الباجي لولديه" جودة عبدالرحمن هلال، العدد الثالث، ١٩٥٥م، (ص ص ١٧ – ٤٦).

(٦) رسالة "أيها الولد" لأبي حامد الغزالي (٤٥٠ هـ / ٥٠٥هـ):

ولد حجة الإسلام محمد بن محمد أبي حامد الغزالي في مدينة طوس التي كانت في عصره عامره بالعلم والعلماء، وبعدما تدرج في سلك التعليم غادرها إلى جرجان، وقرأ على كثير من علمائها، ثم سافر إلى نيسابور كبرى مدن خراسان، وانتقل منها إلى بغداد، حيث تولى التدريس في المدرسة النظامية، وذاع صيته هناك، واشتهر بين العلماء، وغلبت هيبته هيبة الوزراء والسلاطين. وبعد فترة تغير حاله، ومال إلى العزلة، وخرج من بغداد إلى دمشق، حيث اعتكف في الجامع الأموي، وظل في عبادة وزهد وتصوف، وارتحل ما بين القدس والخليل ومكة والمدينة المنورة حاجاً ومعتمراً، ومتأملاً وبقي على هذا الحال أحد عشر عاماً كتب خلالها كتابه المشهور "إحياء علوم الدين"، وفيه خلاصة لتجربته الروحية، ثم عاد إلى مسقط رأسه في طوس، حيث بنى لنفسه مسجداً ورباطاً لطلبة العلم، يقدم من خلاله علومه وتجاربه.

ولأبي حامد ما يزيد على خمسين مؤلفاً في العقيدة والفلسفة وعلم الكلام والفقه وأصوله وفي علم التصوف وغير ذلك من الموضوعات، طبع كثير منها، وأصبحت ركناً مهماً من المكتبة العربية الإسلامية.

ورسالة "أيها الولد"، التي نحن بصددها، هي إجابة لأحد طلبته الذي سأله – بعد أن قرأ عليه رقائق العلوم وصرف عمره في تعلمها وجمعها – عن أي نوع من العلوم ينفعه في غده.

وقد اشتملت هذه الرسالة على جملة من نصائح وإرشادات في الزهد والترهيب والترغيب غاية في الأهمية لطالب العلم، وكتبت في شكل توجيهات وفوائد مباشرة، وبيّن فيها أبو حامد أن العلم يحتاج إلى معلِّم: "واعلم أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربٍّ ليخرج الأخلاق السوء منه بتربيته، ويجعل مكانها خلقاً حسناً، ومعنى التربية يشبه فعل الفلّاح الذي يقطع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع، ليحسُن زرعه ويكمل ريعه". وركزت الرسالة على الأخلاق التي ينبغي لطالب

العلم أن يتحلى بها". ويحضّ الغزالي على أن يعمل الطالب بعلمه::"اعمل أنت بها تَعْلم لينكشف ما لم تَعْلم".

ولقد لقيت رسالة "أيها الولد" اهتماماً كبيراً من المعلمين والمتعلمين، ودلالة ذلك أنه لا تكاد تخلو خزانة من خزائن المخطوطات في العالم من وجود نسخة منها أو شرح من شروحها. وتعددت ترجماتها؛ فقد ترجمت إلى اللغة الألمانية ونشرها هامر برجشتل (Hammer- Purgstall) في فيينا عام ١٨٣٨م. وترجمت إلى اللغة الأسبانية (بيروت١٩٥١م)، والفرنسية (بيروت ١٩٦٨م)، والتركية (قازان ١٩٠٥م)، والأردية (باكستان)، ولها أكثر من ترجمة إلى اللغة الإنجليزية؛ منها (بيروت ١٩٥١م) و(كمبردج ٢٠٠٥م). وفي أغلب هذه الترجمات كان ينشر النص العربي مصاحباً لها.

ونشرت الرسالة باللغة العربية نشراتٍ متعددة؛ منفردةً أو ضمن مجموعة من رسائل الغزالي، ومن بين هذه الطبعات رجعنا في هذه الدراسة إلى النشرة المحققة التي اعتنى بها علي محيي الدين القرداغي (القاهرة ١٩٨٥م)، وقد نشرت عدة مرات بعد ذلك.

الصفحة الأولى من مخطوط «أيها الولد» للغزالي

وظهرت مجموعة من الشروح والدراسات على هذه الرسالة، مما يؤكد أهميتها وقيمتها في المجال التربوي. والجدير بالذكر أن الغزالي تناول مجموعة من الآراء التربوية المتعلقة بآداب المتعلم والعالم في كتابه "إحياء علوم الدين"؛ مفصلاً الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها كل منهما. وقد استُخْلِص هذا الموضوع من كتاب الأحياء، وصدر مستقلا بعناية عبدالله الخالدي[1].

(٧) رسالة «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» لأبي فرج ابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧هـ):

ولد أبو الفرج عبدالرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد، المعروف "بابن الجوزي"، في بغداد وتوفي بها. وقد حفظ القرآن وسمع الحديث منذ صغره، ونال حظاً وافراً في فنون العلم وخصوصاً في مجال الحديث والفقه، فصار علّامة عصره وإمام وقته في تلك العلوم. وصنَّف في فنون كثيرة؛ منها "زاد المسير في علم التفسير" و"المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" و"الوفا بأحوال المصطفى" في

---

(١) عبدالله الخالدي، اللباب من كتاب العلم وآداب العالم والمتعلم، المستخلص من إحياء علوم الدين، بيروت، ١٩٩٨م.

سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وغير ذلك من الرسائل والكتب المتنوعة في موضوعاتها وغاياتها.

وتعد رسالته "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد" رسالة أبوية من أب لولده؛ يحثُّه فيها على طلب العلم، وامتثال أوامر المولى عَزَّوجلّ، والانتهاء عن نواهيه، ويبين له طرفا من سيرته، وكيف تملّك ناصية العلم، فيقول: " فإني أذكر نفسي ولي همّة عالية، وأنا في المكتب ابن ست سنين، وأنا قرين الصبيان الكبار، قد رُزقْت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط، ولا ضحكت ضحكا خارجاً، حتى إني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع، فلا أتخّير حلقة مُشَعْبَذ[1]، بل أطلب المحدِّث، فيتحدث بالسِّير، فأحفظ جميع ما أسمعه، وأذهب إلى البيت فأكتبه.."

"ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يَقْدُم إلا وأحضره،

---

(١) المشعبذ: الذي يُرى الشيء على غير حقيقته.



لفتة الكبد

الى نصيحة الولد

للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية

نصح بها ولده المكنى أبا القاسم

قدم له وعلق عليه الأستاذان

محمد ناصر الدين الألباني و محمود مهدي استانبولي

١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م

مطبعة الترقي بدمشق

غلاف كتاب «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد».

وأتخيّر الفضائل، وكنت إذا عرض عليّ أمران أَقَدِّم في أغلب الأحوال حق الحق".

"ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث، فينقطع نفسي من العدو لئلا أُسبق... ".

"فانتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة، واستق غُصْنَك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت، فكفى بها عظة؛ ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل".

"ولا يوئسك يا بني من الخير ما مضى من التفريط، فإنه قد انتبه خلق كثير بعد الرقاد الطويل".

ويتابع ابن الجوزي نصائحه؛ فيقدم لابنه منهجاً تربوًّيا في اليوم والليلة، يبدأ مع طلوع الفجر وأداء الصلاة في المسجد والأذكار التي ينبغي أن يتلوها، ثم يُقَسِّم وقته بين الدرس والقراءة والعبادة، وأن يحذر من جليس السوء، وأن يكون جلساؤه الكتب والنظر في سِيَر السلف، ولا يشتغل بعلم حتى يُحْكم ما قبله. وحذّره من التشاغل

بالتعبُّد من غير علم؛ فإن خلقاً كثيراً من المتزهدين والمتصوفة ضلُّوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم. ثم وَجَّهه إلى قراءة كتبه وما سوف يفيده منها:

"وعليك بكتاب "منهاج المريدين"؛ فإنه يعلمك السلوك، فاجعله جليسك ومعلمك، وتلمّح كتاب "صيد الخاطر"؛ فإنك تقع بواقعات تصلح لك أمر دينك ودنياك، وتحفّظ كتاب"جنة النظر"؛ فإنه يكفي لتلقيح فهمك للفقه. ومتى تشاغلت بكتاب "الحدائق" أطلعك على جمهور الحديث،وإذا التفَتَّ إلى كتاب "الكشف" أبان لك مستور ما في الصحيحين من الحديث..".

وهو في أثناء نصحه يذكر الأمثلة، ويَحضّ على حسن الخلق مع الآخرين والاستقامة وأداء الحقوق ومراعاة عواقب الأمور.

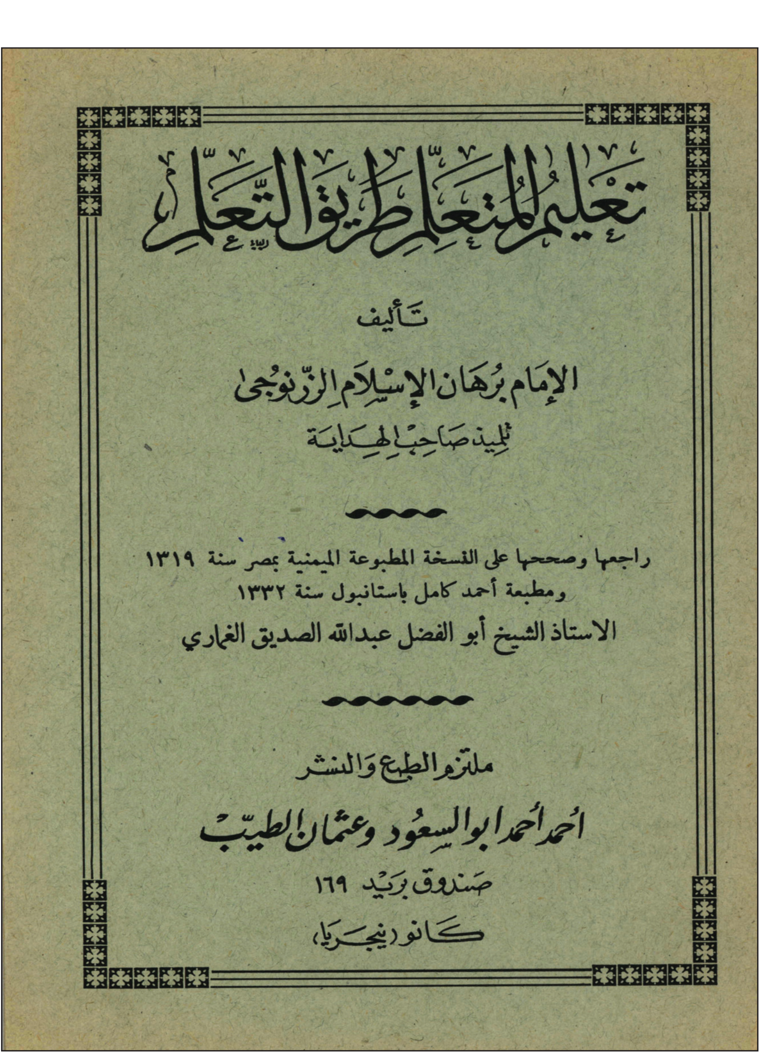
وهذه الرسالة على صغرها هي وصيّة من إمام كبير استحق أن يُطلق عليه "واعظ الآفاق"، ولهذا فقد نالت هذه الرسالة نصيبها الذي تستحقه من النشر؛ فقد طبعت بالمطبعة السلفية بالقاهرة بعناية محب الدين الخطيب، وطبعت بمطبعة الترقي بدمشق بتقديم وتعليق محمد ناصر الدين الألباني ومحمود مهدي إستانبولي عام ١٩٥٥م، ثم

تتابعت الطبعات؛ ومن أبرزها طبعة مكتبة الإمام البخاري بمصر عام ١٤١٢هـ، وهي بتحقيق أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، وقد قدم للرسالة بمقدمة مفصلة؛ تناول فيها ترجمة المؤلف، وترجمة الولد الموصى إليه، وهو أبو القاسم بدر الدين علي بن الجوزي.

(٨) كتاب «تعليم المتعلم طريق التعلم»، للإمام برهان الإسلام الزرنوجي، المتوفى عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م:

وهو كتاب نفيس يشتمل على مجموعة من الفصول؛ تتناول ماهية العلم، وتعظيمه، والجد في تحصيله، وغير ذلك مما يحتاجه المتعلم. يقول الزرنوجي: "وشرف العلم لا يخفى على أحد، إذ هو المختص بالإنسانية؛ لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات؛ كالشجاعة والجراءة والقوة والجود والشفقة، وغيرها سوى العلم، وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة وأمرهم بالسجود له، وإنما شرّف العلم لكونه وسيلة إلى التقوى التي يستحق بها المرء الكرامة عند الله تعالى..".

و"اعلم أن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم



تعليم المتعلم طريق التعلم

تأليف

الإمام برهان الإسلام الزرنوجى

تلميذ صاحب الهداية

راجعها وصححها على النسخة المطبوعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٩
ومطبعة أحمد كامل باستانبول سنة ١٣٣٢
الاستاذ الشيخ أبو الفضل عبدالله الصديق الغماري

ملتزم الطبع والنشر

أحمد أحمد ابو السعود وعثمان الطيب

صندوق بريد ١٦٩

كانو (نيجريا)

طبعة نادرة من كتاب الزرنوجي

العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره، ثم لا بد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم، ولا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، فينبغي أن يكون بالإنصاف والتأني والتأمل، ويتحرز عن الشغب والغضب؛ فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب، وذلك إنما يحصلُ بالتأمل والتأني والإنصاف، ولا يحصل بالغضب والشغب، فإن كان نيته إلزام الخصم فلا تحل المناظرة، وإنما تحل لإظهار الحق. والتمويه والحيلة فيها لا تجوز إلا إذا كان الخصم متعنتاً لا طالباً للحق.

وينبغي أن يكون طالب العلم مستفيداً في كل وقت حتى يحصل له الفضل، وطريق الاستفادة أن يكون معه مَحْبَرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد، فقد قيل: من حَفِظ فَرَّ، ومن كتب قَرَّ، وينبغي أن يستصحب دفتراً على كل حال ليطالعهُ، وقيل: من لم يكن له دفتر في كُمِّه لم تثبت الحكمة في قلبه.

وأقدم طبعة لهذا الكتاب كانت في ليبسك بألمانيا عام ١٨٣٨م، بعناية المستشرق كاسباري. ونشر بعد ذلك مرات عديدة منها ما نشر في الهند (١٢٦٥هـ)، وقازان (١٩٠١هـ)، وتونس (١٢٨٦هـ)،

ومصر (١٣٠٠هـ)، ولدي نسخة قديمة منه مطبوعة في كانو بنيجيريا غير مؤرخة، معتمدين فيها على نسخة المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٩هـ ومطبعة أحمد كامل بإستانبول سنة ١٣٣٢هـ، راجعها وصححها الفقيه المغربي أبو الفضل عبدالله الصديق الغماري.

أما نشراته الحديثة فهي كثيرة، وما ذلك إلا لقيمته التربوية وأهميته في هذا المجال.

وللدلالة على أهمية هذا الكتاب نجد أن نُسخه المخطوطة موجودة في كثير من دور المخطوطات العالمية، ومن أمثلتها نسخة مكتبة جامعة كمبردج (رقم or.15)، ونسخة مكتبة المسجد الأقصى بالقدس (رقم ٧٢/ د)[١]، ونسخة معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر (رقم ٢٨٤٩)[٢].

---

(١) وفي هذه الخزانة أيضا رسالة للقونوي، با يزيد بن عبدالغفار (من القرن العاشر الهجري) بعنوان تصحيح أبيات وقعت في تعليم المتعلم، ورقمها (٣١/ ب). انظر: خضر إبراهيم سلامة، فهرس مخطوطات المسجد الأقصى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٩٩٦م، ص١٩٩، ٢٠٠.

(٢) حسن مولاي: فهرس المخطوطات الإسلامية الموجودة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر، تحرير أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٦م، ص٣٤١.

ويتصل بهذا الكتاب شرحه الذي وضعه إبراهيم بن إسماعيل من علماء القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وعنوانه " شرح تعليم المتعلم"؛ جاء في مقدمته:"وبعد، فلما رأيت الكتاب المسمى بتعليم المتعلم مرغوباً ومقبولا بين أولي التعليم.. وكان في بعض نظمه ونثره مواضع محتاجه لكشف أستاره...".

ونُسَخُ هذا الكتاب المخطوطة منتشرة أيضاً في مكتبات العالم؛ منها نسخة في مكتبة دار الكتب بطنطا (رقم ١٤٦)[١]، وأخرى في خزانة مكتبة المسجد الأقصى (رقم ٧٢/ د)[٢].

وقد طبع هذا الكتاب قديماً في مطبعة محمد عارف بإستانبول عام ١٣٢٠هـ، وطبع معه شرح آخر بعنوان "تفهيم المتفهم على تعليم المتعلم"، كتبه إسماعيل بن عثمان البازاري، وله طبعات حديثة متعددة.

---

(١) يوسف زيدان، فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢١٢ - ٢١٣.
(٢) فهرس مخطوطات المسجد الأقصى، ص٢٠١.

(٩) كتاب «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة (٦٣٩هـ - ٧٣٣هـ):

وُلد بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني الحموي ببلدة حماه في الشام، ونشأ في أسرة عرفت بالعلم؛ فقد كان والده وأخواه من أهل الحديث والعلم والتقوى. وقد درس الفقه والأصول والتفسير والأدب على عدد من الشيوخ، وسعى منذ حداثة سنه في طلب العلم، فرحل إلى دمشق والقدس ومصر.. وكان من أبرز تلامذته الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي، وعماد الدين ابن كثير، ومحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، والإمام تاج الدين السبكي.

وقد تولى القضاء في الشام والقدس ومصر، وتولى التدريس في عدد من المدارس في البلاد المذكورة، وكان غزير العلم وافر التأليف.

ويعد كتاب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة من الكتب القيمة التي تناولت موضوع التعليم من

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وصلى الله على محمد الخ

قال العبد الفقير الى عفو ربه محمد بن ابراهيم ابن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي رحمه الله تعالى الحمد لله البر الرحيم الواسع العليم ذي الفضل العظيم وافضل الصلاة واتم التسليم على سيدنا محمد النبي الكريم المنزل عليه في الذكر الحكيم وانك لعلى خلق عظيم وعلى اله واصحابه جيرته في دار النعيم اما بعد فان من اهم ما يبادر به اللبيب حدة الشباب وقته اي من العشرين الى الثلاثين يشرخ شبابه ويذيب نفسه في تحصيله واكتسابه حسن الادب الذي شهد الشرع والعقل بفضله واتفقت الآراء والالسنة على شكر اهله وان احق الناس بهذه الخصلة الجميلة واولاهم بحيازة هذه الرتبة الجليلة اهل العلم الذين حلوا به ذروة المجد والسناء واحرزوا به قصبات السبق الى وراثة الانبياء لعلمهم بمكارم اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وادابه وحسن سيرة الائمة الاطهار من اهل بيته واصحابه وبما كان عليه ائمة علماء السلف واقتدى بهداهم فيه مشايخ الخلف قال ابن سيرين كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم وقال الحسن ان كان الرجل ليخرج في ادب نفسه السنتين ثم السنتين قال سفيان ابن عيينة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الميزان الاكبر عليه تعرض الاشياء على خلقه وسيرته وهديه فما وافقها فهو الحق وما خالفها فهو الباطل وقال حبيب ابن الشهيد لابنه يا بني اصحب العلماء والفقهاء وتعلم منهم وخذ من ادبهم فان ذلك احب الي من كثير من الحديث وقال بعضهم لابنه يا بني لان تتعلم بابا من الادب احب الي من ان تتعلم سبعين من العلم وقال مخلد بن الحسين لابن المبارك نحن الى كثير من الادب احوج منا الى كثير من الحديث وقيل للشافعي رضي الله عنه كيف شهوتك للادب قال اسمع بالحرف منه مما لم اسمعه فتود اعضائي ان لها اسماعا تتنعم به وقيل وكيف طلبك له قال طلب المراة المضلة ولدها وليس لها غيره ولما بلغت رتبة الادب هذه المزية وكانت مدارك مفصلاته خفية دعاني ما رأيت من احتياج الطلبة اليه وعسر تكرار توقيفهم عليه اما للحيا فيمنعهم الحضور واما للجفا فيورثهم [illegible] النفور الى جمع

الصفحة الأولى من إحدى مخطوطات «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة

جميع جوانبه، وتدل موضوعاته على ما اتصف به ذلك الكتاب من شمولية واستقصاء، ومن إدراك للرباط الوثيق ما بين المعلم ومناهج الدروس والمبنى المدرسي، وكذلك دور الأسرة في تهيئة أبنائها للتعليم، والعلاقة بين ولي أمر الطالب والمعلم، ولم يهمل العناية بالخط وبالكتاب، وآداب التعامل ما بين المعلم والطالب. وقد رتب ابن جماعة كتابه على خمسة أبواب تحيط بمقصوده على النحو التالي:

- الباب الأول: في فضل العلم وأهله، وشرف العالِم ونبله.

- الباب الثاني: في آداب العالم في نفسه ومع طلبته ودرسه.

- الباب الثالث: في أدب المتعلم في نفسه، ومع شيخه ورفقته ودرسه.

- الباب الرابع: في مصاحبة الكُتُب، وما يتعلق بها من الأدب.

- الباب الخامس: في أدب سكنى المدارس، وما يتعلق به من النفائس.

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات، واستفاد منه كثير من

التربويين؛ طبعتان منها تعدان الأفضل؛ الأولى بتحقيق السيد محمد هاشم الندوي، وتتضمن شروحاً جيدة للمحقق(١)، والثانية بتحقيق محمد بن مهدي العجمي، اعتمد فيها على عدد من المخطوطات لم تكن تحت يد المحقق الأول، فجاءت أفضل من سابقتها ضبطاً وكمالاً(٢).

(١٠) كتاب «تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدّبُو الأطفال» لابن حجر الهيتمي (٩٠٩ - ٩٧٣هـ):

ولد أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي في محلة أبي الهيتم، إحدى قرى مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية بمصر، وتوفي أبوه وهو صغير، فكفله الإمامان شمس الدين بن أبي الحمايل وشمس الدين الشناوي، وبعد أن حفظ القرآن واكتسب مبادئ العلوم التحق بالأزهر، وقبل بلوغه العشرين من عمره أذن له شيوخه بالتدريس، وبرع في علوم كثيرة من التفسير والحديث والكلام والفقه، أصوله وفروعه، والفرائض والحساب وفنون البلاغة والمنطق والتصوف. وقد حج عامي ٩٣٣هـ و ٩٣٧ هـ، ثم حج عام ٩٤٠هـ، وجاور

(١) دار رمادي، الدمام ١٩٩٤م.
(٢) دار البشائر، بيروت ٢٠٠٨م.

في مكة؛ يدرس بها، ويفتي، ويؤلف، إلى وفاته في عام ٩٧٣هـ، وقد ترك لنا عدداً من الشروح والمؤلفات.

وكتابه "تحرير المقال" عرض فيه لمجموعة من التساؤلات الخاصة بالعلاقة بين المعلم وطالب العلم، وهو يوضح من خلالها أحكام العلاقة بين الاثنين، وكذلك ما بين المتعلم وأهله. وقد ركز على الأحكام المتعلقة بالأيتام من الصبيان، وتحديد العلاقة بينهم وبين المعلم والوصي عليهم وناظر الوقف. وبيان جملة الفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها مؤدبو الأطفال، مع الاستشهاد في كل ذلك بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من آيات وحديث [١].

وقد طبع هذا الكتاب اعتماداً على نسخة واحدة محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق (رقم ٨٤٠٣) نُسخت عام ١١١٣هـ.

(١١) رسائل مغربية متفرقة:

في التراث العربي المغربي نماذج أخرى كثيرة لتلك التوجيهات

---

(١) ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين أحمد بن محمد، تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال، تحقيق محمد سهيل الدبس بإشراف محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م.

والوصايا التربوية، فقد عرف المغرب في العصور التالية نشاطا في التأليف في مادتي التعليم والتربية، وهو امتداد لما أشرنا إليه من مؤلفات في تونس والأندلس. ونتوقف عند ثلاث رسائل لها أهميتها في هذا الموضوع:

أولها - وصية أبي حامد الفاسي لأبنائه، وهي رسالة في تحديد المواد الدراسية وترتيبها، كتبها أبو حامد محمد المغربي بن يوسف الفاسي، المتوفى عام (١٠٥٢ هـ / ١٦٤٢م). ورسالة أخرى بعنوان: "تمام النصيحة في إرشاد الطلبة" من تأليف أيبورك بن عبدالله السوسي السملالي، المتوفى عام (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م)، ومنها مخطوطة في المكتبة العامة بتطوان(رقم٢١١). وكتاب "القانون" لأبي علي الحسن ابن مسعود اليوسي، المتوفى عام (١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م)،وقد جاء هذا المصنف في ثلاثة أبواب؛ أولها أحكام العلم (خمسة عشر فصلاً)، والثاني في أحكام العالِم(ستة عشر فصلاً)، والثالث في أحكام المتعلم (سبعة عشر فصلاً)، وقد نشر هذا الكتاب بالمطبعة الحجرية الفاسية عام ١٣١٠هـ.

ومن أطرف تلك الرسائل رسالة بعنوان "مختصر الأقاويل" لمؤلف مجهول من مدينة "تازا" كان موجوداً عام ١٠٧٠هـ. والكتاب يهتم بحياة الطلاب المجاورين بالمدارس لتلقي العلوم، ويتناول آداب سلوكهم في الحياة اليومية؛ فيما بينهم، وإزاء الأساتذة، وفي معاملاتهم على العموم. كما يعتني بما يمكن أن يمارسه الطلاب في أوقات الفراغ، وخصص لهذه الغاية بعض الأبواب والفصول، منها باب أنظمة لعب الكرة، وباب في طريقة اللعب بالشطرنج، وباب في التعريف بأصول الموسيقى الأندلسية، وقد تكرر نشر هذه الرسالة بعد طباعتها بالمطبعة الحجرية الفاسية عام ١٣٠٠هـ.

وقد أفاض أستاذنا الشيخ محمد المنوني، يرحمه الله، في بيان نماذج أخرى من الرسائل والكتب التي تناولت هذا الموضوع في التراث المغربي، فذكر نحو ست عشرة رسالة في هذا المجال بما في ذلك الرسائل الثلاث التي أشرنا إليها قبل قليل.(١)

---

(١) محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م، المجلد الثاني، ص ص ٨١٩ – ٨٢٥، المجلد الثالث، ص ص ١١٨٨ – ١٢٠٢.

(١٢) كتب ورسائل مشرقية حديثة:

يمكن القول إن من الصعب الإحاطة بكل ما كتب في هذا المجال، ولكننا اخترنا النماذج التالية للدلالة على ما حظي به هذا النوع من التأليف من عناية وتقدير لما له من أهمية في تربية الناشئة:

- "المرشد الأمين في تربية البنات والبنين" لرفاعة الطهطاوي (١٠٨١ – ١٨٧٣م):

ولد رفاعة رافع الطهطاوي بمدينة طهطا إحدى مدن سوهاج بصعيد مصر، وقد نشأ في عائلة معروفة بالعلم؛ وقد تلقى تعليمه هناك، وفي سن السادسة عشرة التحق بالأزهر، حيث درس الحديث والفقه والتفسير والنحو والصرف، وفي عام ١٨٢٦م تم ترشيحه إماماً للبعثة الدراسية التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا، وكان عددها أربعين طالباً. وهناك اجتهد فدرس الفرنسية فأجادها، وبعد خمس سنوات اجتاز امتحان الترجمة، ثم عاد إلى مصر حيث بدأ مشروعه الثقافي؛ بتدريس الترجمة أولاً، ثم بإنشاء مدرسة الألسن التي عُيِّن مديرا لها بجانب التدريس، فضلا عن أنشطته الأخرى التي كان من

شأنها تعريب كثير من العلوم والمعارف، واهتم الطهطاوي بإحياء التراث العربي، وأقنع الحكومة بإصدار عدد من مصادره المهمة.

وللطهطاوي عشرات الكتب المؤلفة والمترجمة؛ منها كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، الذي وصف فيه البلاد الفرنسية، ونال شهرة واسعة، حيث يشار إليه بأنه من بين أفضل كتب الرحلات في العصر الحديث. ومن كتبه أيضاً "مباهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" و "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز". وترجم ما يزيد على خمسة وعشرين كتابا غير ما أشرف عليه وراجعه وصححه منها.

ويعد كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" أول كتاب عربي حديث يكتب في التربية، ويدعو إلى تعليم البنات العلوم العصرية. وتتضمن أبواب الكتاب معلومات متنوعة عن تربية الفرد والمجتمع في مجالات الأسرة والمدرسة والسياسة والوطنية؛ فهو جزء من دعوة عامة إلى النهضة في مصر، والتي جعل من التربية والتعليم أساسا لها.

وقد خصص الطهطاوي الباب الثالث من الكتاب في التعلم والتعليم وأقسامه، وفيه خمسة فصول، تكلم فيها عن تشريك البنات مع الصبيان في التعليم والتعلم، وأهمية المطالعة والمدارسة والمنافسة في كسب المعارف بين الأقران، وتقوية الروح والعقل والقريحة لدى الطلاب بما يؤدي إلى العقل الكامل الذي يدرك العلاقات بين الأشياء، ومن هذه العلاقات ما يكون بين الفنون الأدبية والعلوم الحقيقية. ثم يختم هذه الفصول بفصل في ذكر الطرق المسهلة لتقدم العلوم والآداب وطريق الحصول عليها واكتسابها.

أما الباب الرابع من هذا الكتاب فيتكلم فيه عن الوطن وتَمَدْيُنه، وبيان أن أعظم أسباب ذلك التربية والتعليم واستكمال المعارف والتعليم.

فالكتاب إذاً سلسلة مترابطة من الموضوعات التي بها تحصل النهضة العامة في البلاد باتباع التوجيهات الواردة فيها، وهو يربط ما بين التعليمات التي اشتملت عليها كتب التراث العربي وبين توجهات النهضة الأوربية الحديثة وفق ما اطلع عليه من آثارها.

وقد طبُع كتاب "المرشد الأمين" لأول مرة عام ١٨٧٢م، وطبع مرات متعددة بعد ذلك، وآخر طبعة كانت عام ٢٠١٢م، صدرت عن دار الكتاب المصري مع مكتبة الإسكندرية، ويميز هذه الطبعة المقدمة الوافية التي كتبتها الدكتورة منى أحمد أبو زيد عن شخصية رفاعة الطهطاوي وعن الكتاب بشكل خاص.

ومن أهم أعماله، مما يتصل بموضوعنا، هو رئاسته لمجلة "روضة المدارس" التي صدر عددها الأول في ١٦ من أبريل ١٨٧٠م، وهدفها نشر الثقافة التربوية العامة؛ فهي مختصة بأخبار المدارس، وما يوجه لتثقيف التلاميذ، واشتملت على موضوعات متعددة في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية والأدبية بجانب العلوم الطبيعية والفنون.

وضمت المجلة أيضا مجموعة من المقالات المترجمة التي جعلت منها نافذة يُطَلُّ منها على الحضارة الغربية في أطوار تقدمها، وأسهم في الكتابة بها جمهرة من علماء مصر ومثقفيها. ومن الخدمات التي قدمتها تلك المجلة أنها نشرت مجموعة من الكتب التاريخية والعلمية

المؤلفة والمترجمة. وبشكل عام فقد قدمت تلك المجلة خدمة كبيرة في مجال التربية والتعليم، وكانت المجلة العربية الرائدة في هذا الميدان.

- "كتاب "علم الدين" لعلي باشا مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣م)

ولد علي مبارك في قرية برنبال من محافظة الدقهلية بمصر، وبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة التحق بالمدرسة الجهادية بالقاهرة، ثم المدرسة التجهيزية، ثم التحق مع مجموعة من المتفوقين بمدرسة المهندس خانة في بولاق عام ١٨٣٩م، درس فيها علوم الجبر والكيمياء والهندسة والجيولوجيا وغيرها من العلوم البحثية، وتخرج فيها عام ١٨٤٤م.

وفي عام ١٨٤٩م اختير ضمن مجموعة من الطلاب للدراسة في فرنسا،حيث قضى ثلاث سنوات في تعلم المدفعية والهندسة الحربية، وتولى بعد عودته إلى مصر عدداً من الوظائف الهامة؛ منها إدارة ديوان المدارس (المعارف)؛ فاهتم بترتيب الدروس، وتأليف الكتب المدرسية، ورعاية الطلاب، بجانب التدريس، وتولى في عهد الخديوي إسماعيل ثلاث وزارات، هي الأوقاف والمعارف

والأشغال، وكان له دور كبير في الإشراف على التنظيم العمراني لمدينة القاهرة لا يزال أثره باقيا حتى الآن.

ترك علي مبارك عددا من المؤلفات، من أبرزها كتابه "الخطط التوفيقية"، الذي يصف فيه مصر وقراها القديمة والحديثة، وهو من المصادر المهمة في معرفة التطور العمراني بمصر على مر التاريخ. ووضع أيضا مجموعة من الكتب المدرسية؛ منها كتاب "تقريب الهندسة" و"حقائق الأخبار في أوصاف البحار" و"الاستحكامات العسكرية" وغيرها.

أما عن كتاب "علم الدين"، الذي نحن بصدده، فقد ألفه في أيام نظارته ديوان المعارف بمصر في أواخر القرن التاسع عشر، وقد كتبه في أسلوب حكاية لطيفة عن شاب مصري يدعى "علم الدين"، قام بسياحة مع رجل إنجليزي، وتعرض من خلالها لجمل شَتَّى من الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والإفرنجية في العلوم الشرعية، والفنون الصناعية، وأسرار الخليقة، وغرائب المخلوقات، وعجائب البر والبحر، وما تقلب فيه نوع الإنسان من الأطوار

والأدوار؛ لينبه قريحة قارئه، ويستنهض أفكاره، ويدفعه لإعمال عقله، وإمعان نظره، واستعمال بصيرته في نقد الأمور وسبرها وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها، والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر.

واستطاع من خلال سياحة "علم الدين" ذلك الشاب القادم من الريف أن يقدم ثقافة العصر وآفاق المدينة ومشكلاتها ومخترعاتها في أسلوب قصصي يسمو عن السآمة ولا يميل إلى الملالة.

ويقع هذا الكتاب في أربعة مجلدات كبيرة، وقد نشر عام ١٨٨٢م، والقارئ له يدرك أن علي مبارك، وهو السياسي والمربي الكبير، أراد أن يكون ذلك الكتاب دليلاً ومرشداً لناشئة ذلك العصر في مواجهة التغيرات العظيمة التي كان يتعرض لها المجتمع في ذلك الوقت بعد انفتاح مصر على أوربا بنهضتها الجديدة.

- كتاب «أي بُني: مقارنة ماضينا وحاضرنا»، للدكتور عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر (١٩٢٥ - ٢٠١٤م):

ولد الدكتور عبدالعزيز الخويطر في بلدة عنيزة بالمملكة العربية السعودية، وتلقى فيها تعليمه الأولي، ثم انتقل للدراسة في المعهد

العلمي السعودي بمكة المكرمة، ثم ذهب إلى القاهرة حيث حصل على الإجازة الجامعية من كلية دار العلوم(١٩٥٢م)، ومنها إلى بريطانيا حيث حصل على الدكتوراه في مجال التاريخ، وكان أول سعودي يحصل على هذه الدرجة من جامعة لندن، وكان ذلك عام ١٩٦١م.

وقد تولى الدكتور الخويطر مناصب قيادية متعددة؛ فقد عمل في التدريس، ورأس جامعة الملك سعود نحو عشر سنوات، وتولى عدة حقائب وزارية؛ أبرزها وزارة التربية والتعليم (١٩٧٦ – ١٩٩٦م)، وله عدد من المؤلفات؛ منها كتاب "الملك الظاهر بيبرس"و "من حطب الليل"، و سيرة ذاتية صدرت في عدة أجزاء تحت عنوان "وسم على أديم الزمن".

وكتاب "أي بُني" وهو موسوعة تراثية هدفها تبصرة الجيل الحاضر في بلاد نجد بما كان عليه الآباء والأجداد في حياتهم ومعاشهم، وكيف واجهوا صعوبة العيش في بيئة فقيرة بالموارد؛ فقد وجد أن كثيرا من الأحوال التي عاشها المؤلف في القرى والبلدان

النجدية لم يعد الأبناء يعرفون عنها إلا القليل، فقدم هذا الكتاب مُوجها إلى الجيل الجديد ليقارن بين الماضي والحاضر،وليخلص من خلال القصص والحكايات والأحداث التي أوردها إلى جملة من العبر التي تعين شباب هذا الزمان في مستقبل أيامهم.

والكتاب تربوي مفيد، صيغ بأسلوب جديد في توجيه الأبناء إلى وجوب المحافظة على القيم التي كان عليها مجتمع الجزيرة العربية قبل نهضته الحديثة، والتمسك بمحاسن العادات ومكارم السماحة والمروءة والشجاعة. وساق كل ذلك في بيان ممتع تتخلله الأمثلة والقصص المشوقة، وقدم من خلال ذلك كله تسجيلا دقيقاً لتقاليد الناس وعاداتهم في ذلك الزمان.

وقد نشر الكتاب أولا في صورة مقالات في "المجلة العربية"، ثم طبع في خمسة أجزاء في الرياض عام ١٩٩٨م.

- مؤلفات أخرى:

من الصعب الإحاطة بالوصايا والرسائل التي تناولت موضوع المعلم والمتعلم، وكان ما ذكرناه لا يعدو نماذج مختارة مما جاء في تراثنا

العربي في العلم المتعلق بآداب تتصل بالتلميذ والأستاذ؛ فهناك كثير من الوصايا والرسائل التي نشرت في هذا المجال، وهي في مجملها تخص العلم بشكل عام؛ فتتحدث عن أخلاق العلماء، والحث على حفظ العلم، وآداب العالم والمتعلم، وسياسة الآباء لأبنائهم، ومنها على سبيل المثال:

- كتاب «أخلاق العلماء» لأبي بكر الآجري (٢٨٠ - ٣٦٠هـ):

تضمن مجموعة من الموضوعات؛ منها فضل العلماء في الدنيا والآخرة، وصفاتهم في القرآن الكريم والحديث الشريف، وصفة طلب العلم ومجالسة العلماء، وأخلاق العالم ومعاشرته لسائر الخلق.

- كتاب "الحث على طلب العلم وذكر كبار الحفاظ" لأبي فرج ابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧هـ):

ويركز هذا الكتاب، الذي يشتمل على سبعة فصول، على موضوع الحفظ؛ والحث عليه، وتربية الصبي عليه، وبيان الأوقات المناسبة للحفظ وتكرار المحفوظ، وغير ذلك مما يدخل في هذا المجال، وختم الكتاب بذكر أبرز الحفاظ.

- كتاب "تذكرة الآباء" لكمال الدين عمر بن أحمد ابن العديم (٥٨٨ – ٦٦٠هـ):

وفيه مجموعة من الوصايا في اكتساب الأولاد العلم والحث عليه، وفي محبة الآباء لأبنائهم، وفيما يجب لهم على الآباء، وفي توصية الآباء معلمي أولادهم بهم.

- كتاب "العلم وآداب العالم والمتعلم» ليحيى بن شرف النووي (٦٣١ – ٦٧٦هـ)":

وهو من الكتب الجليلة في فضيلة العلم، وتصنيفه، وتعليمه، والحث عليه، والإرشاد إلى طرقه. وتضمن فصولاً في آداب المعلم، وآداب المتعلم، والآداب التي ينبغي أن يشتركا فيها معاً.

- كتاب «آداب الدارس والمدرس» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي:

وهو رسالة مختصرة تضمنت آداب المدرس والدارس، أحيا فيها المؤلف ما قاله الأئمة المتقدمون في هذا الموضوع. وقد حقق

هذه الرسالة صديقنا الشيخ محمد بن ناصرالعجمي، ونشرت في الكويت عام ٢٠١٦م.

ونؤكد مرة أخرى أن ما ذكرناه هو غيض من فيض، وأن ما كتبه علماء المسلمين عن العلم وفضله وأدواته وحَمَلَتِه، وعن التعليم بشكل عام؛ سواء في صورة كتب أو رسائل أو وصايا أو في أضعاف الكتب، يحتاج إلى دراسة أشمل في موضوعاتها عما ذكرناه.[1]

(١) من الكتب والدراسات التي حاولت استقصاء هذا الموضوع ما يلي:
- كتاب آداب العالم والمتعلم عند المفكرين المسلمين من منتصف القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن السابع، تأليف يحيى علي حسن مراد، بيروت، ٢٠٠٢م.
- كتاب الفكر التربوي الإسلامي، تأليف عبدالله زاهي الرشدان، دار وائل، الأردن، ٢٠٠٤م.
- التربية الإسلامية بين القديم والحديث، تأليف محمد المختار ولد أباه، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ١٩٩٣م.
- كتاب التعليم والإرشاد، تأليف السيد محمد بدر الدين الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٦م.
- دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، تأليف محمد منير سعد الدين، دار بيروت المحروسة، بيروت، ١٩٩٢م.

(٥)

التعليم والتأديب في كتب الحسبة

ترجع نشأة الحسبة إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وتهدف إلى مراقبة المجتمع بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق ما جاء في القرآن الكريم والشرع الشريف، وتطور هذا الأمر إلى نظام إداري؛ له رئيس يسمى "المحتسب"، يساعده مجموعة من الأعوان الذين يطوفون بالأسواق للتأكد من سلامة البضائع والمعاملات التجارية من الغش والتدليس، وبلغ من سلطة "المحتسب" في بعض الفترات التاريخية أن يقصد مجالس الأمراء والحكام ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعظهم ويذكرهم ويأمرهم بالشفقة على الرعية. وكانت سلطته تشمل كافة نواحي الحياة في المجتمع الإسلامي.

وقد وضعت مجموعة كبيرة من القواعد والأحكام التي يسترشد بها في تطبيق العمل المنوط بالمحتسب ومعاونيه، وفي التراث

العربي مجموعة من الكتب التي تناولت الأحكام المذكورة بشيء من التفصيل؛ نذكر منها كتاب "الرتبة في طلب الحسبة " للإمام علي ابن محمد بن حبيب الماوردي (٣٦٤ هـ - ٤٥٠هـ)، وكتاب " في آداب الحسبة" لمحمد بن أبي محمد السقطي المالقي، من فقهاء القرن السادس عشر الهجري. وكتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" لعبد الرحمن الشيزري، المتوفى في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وكتاب "معالم القربة في أحكام الحسبة" لمحمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الإخوة (٦٤٨ هـ ـ ٧٢٩ هـ) (١٢٥٠ - ١٣٢٩م)[١].

والملاحظ أن هذه المصادر تتفق فيما بينها اتفاقا كبيرا فيما

---

(١) رجعنا إلى الطبعات التالية من كتب الحسبة:
- الماوردي، علي بن محمد، الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق أحمد جابر بدران، وعلي جمعة محمد، بنك الكويت الصناعي، الكويت، ٢٠٠١م.
- الشيزري، عبدالرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، بيروت (د.ت).
- السقطي،محمد بن أبي محمد، كتاب في آداب الحسبة، نشره جورج كولان وليفي بروفنسال، الرباط، ٢٠١١م،
- القرشي،محمد بن محمد، معالم القربة في أحكام الحسبة، نشره روبن ليفي، كمبردج ١٩٣٨م، وطبعة القاهرة، ١٩٧٦م بتحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي.

يتعلق بالأحكام الخاصة بالحسبة وطرق المراقبة، غير أنها تتفاوت في التفاصيل، وفق اختلاف عصور مؤلفيها. وبالرجوع إلى الفصل الخاص بالحسبة على مؤدبي الصبيان في المؤلفات المذكورة نجدها في غالبها مكررة بعباراتها نفسها عند الماوردي و الشيزري وابن الإخوة، ولهذا اخترنا أولها لنورد ما جاء عنده في هذا الموضوع:

في الحسبة على مؤدبي الصبيان عند الماوردي:

"لا يجوز تعليم الخط في المساجد ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين، لأنهم يسودون حيطانها، وينجسون أرضها، ولا يحترزون من البول وسائر النجاسات، بل يتخذون للتعليم مواضع شرحة في أطراف الأسواق، ويمنعون أيضاً من التعليم في بيوتهم للتهمة.

واعلم أنها أجل المعايش لقوله صلى الله عليه وسلم:"خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

فحينئذ يشترط في المعلم أن يكون من أهل الصلاح والفقه والأمانة، حافظاً لكتاب الله العزيز، حسن الخط، يدري الحساب،

والأَوْلى أن يكون شيخاً كبيراً، ومع ذلك أن يكون اشتهر بالدين والخير بشهادة عدول مرضية، وثبوت أهليته لذلك.

وينبغي للمؤدب أن يترفق بالصغير، وأن يعلمه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة الحروف المعجمة، وضبطها بالشكل وَيُدرِّجه بذلك حتى يألفه طبعاً. ثم يعرفه عقائد السنن، ثم أصول الحساب وما يستحسن من المراسلات، وفي وقت بطالة العادة يأمرهم بتجويد الخط المثال، ويكلفهم عرض ما أملاه لهم حفظاً غائباً لا نظر فيه.

ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة في جماعة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "علموا صبيانكم الصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر". ويأمرهم ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيل أيديهما عند الدخول إليهما، ويضربهم على إساءة الأدب، والفحش في الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع، مثل اللعب بالكعب، والبيض والنرد، والبندق، والطاب، وجميع أنواع القمار.

ولا يضرب صبياً بعصاة غليظة تكسر العظم،ولا رقيقة تؤلم

الجسم، بل تكون وسطاً، ويتخذ مجلداً عريض السير، ويعتمد بضربه على اللوايا، والأفخاذ وأسفل الرجلين؛ لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا علة ولا غائلة.

وينبغي للمؤدب ألا يستخدم أحداً من الصبيان في حوائجه وأحواله التي فيها عار على آبائهم، كنقل التراب والزبل،وحمل الحجارة،وغير ذلك، ولا يرسله إلى داره وهي خالية لئلا يتطرق إليه التهمة، فإن جماعة من الفساق يحتالون على الصبيان.

ويكون السائق لهم أميناً ثقةً متأهلاً لأنه يستلم الصبيان في الغدو والرواح، وينفرد بهم في الأماكن الخالية، ويدخل على الصبيان بيوتهم.."[1].

(١) الماوردي، الرتبة في طلب الحسبة، ص٣٤٩ – ٣٨١.

(٦)
المنظومات والأراجيز التعليمية

يهدف النَّظْم التعليمي إلى إيصال المعرفة وتسجيلها وحفظها من الضياع؛ فالشعر بموسيقاه وإيقاعه أوقع في النفس وأخف على السمع وأسرع رسوخاً في الذاكرة مقارنة مع النثر، فاختاره القدماء قالباً لبعض علومهم بدلاً من النثر[١].

وقد شاع نمط التأليف التعليمي المنظوم في البلاد العربية والإسلامية، بل إن المنظومات المتعلقة بالفلك والأنواء التي حفل بها الشعر الجاهلي قد تدخل ضمن هذا الإطار.

وقد تعددت مجالات المنظومات، وفازت علوم اللغة بنصيب وافر منها،وتقف "ألفية ابن مالك" في النحو مثالاً واضحاً للنظم التعليمي، كما تعددت المنظومات التي صنفت في العلوم الدينية في

---

(١) جلال شوقي، العلوم العقلية في المنظومات العلمية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ١٩٩٠م، ص ٥٢٩ وما بعدها.

قواعد الفقه والمواريث وعلوم القرآن والحديث، ومن أمثلتها "متن الشاطبية" في القراءات السبع، التي يبلغ عدد أبياتها ١١٧٣ بيتاً، وهي من أوائل القصائد التي نظمت في علم القراءات.

أما العلوم العقلية فهناك ميراث واسع من المنظومات المتعلقة بالطب والكيمياء والفلك والرياضيات والموسيقا والملاحة وغيرها.

وفيما يلي نماذج لأهم المنظومات التعليمية:

ديوان الأمير خالد بن يزيد في الحكمة:

يرى الدكتور جلال شوقي أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان (المتوفى سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م) أول من أنشأ ما نعرفه اليوم بالنَّظْم التعليمي؛ حيث سجل خالد بن يزيد معارفه في علم الصنعة (الكيمياء) في قوالب شعرية في ديوان بلغ عدد أبياته نحو ٢٩٠٠ بيت، وتوجد منه نحو ١٥ نسخة، أبرزها النسخة المحفوظة في مكتبة كوبربلي بإستنبول رقم ٩٢٤. ومما جاء في خاتمتها:

هذا بيان الحكمة البديع والمنطق البيّن السميع
فيه كلام كاللآلي المنتظم مبيّن مفسّر لمن علم
مقوّم مفصّل مـــوزونا يظنه جاهله جنونا
وهو صفات الحكمة البديعة صفاتها عن جاهل منيعة

وتوالت في القرون التالية مجموعة من المنظومات المتعلقة بالكيمياء، حيث بلغت أكثر من ثلاثين منظومة بخلاف شروحها.

أرجوزة ابن سينا في الطب (الألفية في الطب):

الشيخ الرئيس أبو علي حسين بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٧هـ / ٩٨٠- ١٠٣٧م) من أشهر علماء المسلمين الذين برعوا في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك؛عرفه الغربيون بأمير الأطباء،وله كتاب "القانون في الطب"، الذي ظل نحو سبعة قرون متوالية مصدراً رئيسياً لتعليم الطب في جامعات أوربا في القرون الوسطى. وقد ألف نحو ٢٠٠ كتاب في موضوعات مختلفة.

ولابن سينا مجموعة من الأراجيز؛ منها "المجربات في الطب"، و"أرجوزة في التشريح"، و"القصيدة العينية في النفس"، وأبرز تآليفه في هذا المجال "أرجوزة ابن سينا في الطب" أو"الألفية في الطب"، التي تناول فيها موضوع حفظ الصحة، وتناولت عديداً من المسائل الطبية، وحفلت بكثير من المصطلحات والتعريفات الطبية الدقيقة. وقد جاء في مقدمتها:

الطب حفظ صحة بُرء مرض — من سبب في بدن منذ عرض
قسمته الأولى بعلم وعمل — والعلم في ثلثه قد اكتمل
سبع طبيعات من الأمورِ — وستة وكلها ضروري
ثم ثلاث سطرت في الكتب — من عرض ومرض وسبب
وعمل الطب على ضربين — فواحد يُعمل باليدين
وغيره يعمل بالدواء — وما يقدَّر من الغِذاء

وقد طبعت أرجوزة ابن سينا طبعات متعددة؛ أحدثها النشرة التي أعدها الدكتور ثابت عيد بالعربية والألمانية مع شرح ابن رشد، وثلاث مقدمات بقلم العالم الألماني الحائز على جائزة نوبل في الطب

توماس سودهوف، والعالم المصري حسن الشافعي رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بالإضافة إلى د.ثابت عيد.[1]

الأرجوزة الياسمينية في علم الجبر والمقابلة:

تُنسب هذه الأرجوزة إلى أبي محمد عبدالله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين، الذي عاش في القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، نشأ في إشبيلية، ثم انتقل منها إلى فاس،وبرع في فنون شتى منها الفقه واللغة والشعر، بالإضافة إلى الهندسة والرياضيات، ونال مكانة مميزة عند حكام فاس.

وتشتمل أرجوزته على خلاصة لكثير من القوانين والمعادلات الجبرية، وشرح لأصول علم الجبر. وقد شاعت هذه الأرجوزة بين الناس لوضوحها ودقة ألفاظها، وتعد من المصادر الأساسية في الرياضيات العربية. تبدأ الأرجوزة بمقدمة عن العدد الصحيح وأبواب في الجمع والطرح والضرب والقسمة وحل العدد إلى أصوله. ثم مقدمة في الكسور وأبواب الجبر وطرق استخدام المجهولات ثم ينتقل إلى علم الجبر والمقابلة؛ جاء في الفصل الأول منها:

---

(١) ثابت عيد، أرجوزة ابن سينا في الطب، القاهرة ،٢٠١٧م.

على ثلاثة يدور الجبرُ المال والأعداد ثم الجذرُ
فالمال كل عدد مربع وجذره واحد تلك الأضلع
العدد المطلق ما لم ينسبِ للمال والجذر فافهم تُصِب

وقد لقيت هذه الأرجوزة رواجاً كبيرا بين المهتمين بالرياضيات، ودلالة ذلك كثرة مخطوطاتها وانتشارها بين بلدان العالم الإسلامي، وقد سجل منها الدكتور جلال شوقي ٤٦ نسخة موزعة بين دور المخطوطات والكتب في العالم، وقد تولى تحقيقها وإصدارها ضمن مجموعة منظومات ابن الياسمين في أعمال الجبر والحساب [١].

ومن علامات اهتمام العلماء بهذه الأرجوزة كثرة من تناولوها بالشرح والتوضيح، وقد أحصى جلال شوقي نحو ثلاثة عشر شرحا، من أبرزها شرح أحمد بن محمد ابن الهائم المصري(ت٨١٥هـ)، ومحمد بن محمد الشهير بسبط المارديني (ت ٨٢٨هـ)، وعلي بن محمد القلصادي (ت٨٩١هـ) وغيرهم [٢].

(١) جلال شوقي، منظومات ابن الياسمين، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٨م.
(٢) جلال شوقي، العلوم العقلية في المنظومات العلمية، ص ٢٢٨- ٢٢٩.

ولابن الياسمين أيضا كتاب بعنوان "تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار" في الرياضيات، والكتاب ينبئ عن عبقرية ابن الياسمين في هذا الفن، وعن ملكته الرياضية. وقد كان من مذكراته التي كان يلقيها على طلبته.

وقد توفي ابن الياسمين بمراكش عام ٦٠١هـ.

- «حاوية الاختصار في أصول علم البحر» لشهاب الدين أحمد بن ماجد (٨٢٥ - ٩٠٦هـ):

اختلف الباحثون في الموطن الأصلي لأحمد بن ماجد، والمعروف أنه عاش في جلفار(رأس الخيمة)، التي أشار إليها في أراجيزه ووصفها بأنها البلد التي نشأ بها أسود البحر وفرسانه المجربون:

رعي الله جلفارا ومن قد نشا بها وأسقى ثراها واكف متتابع
بها من أسود البحر كل مـجرب وفارس بحر للشدائد بارع

ويعد أحمد بن ماجد من أعلام البحر العرب، الذين جمعوا بين العلم والعمل،فقدم من خلال ذلك طائفة من المرشدات الملاحية والقصائد التي تبين طرق الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي.

وجمع في كتابه الشهير "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد"، شرحاً وتفصيلاً لما جاء في أراجيزه من إرشادات بحرية.

وأرجوزة "حاوية الاختصار في أصول علم البحار" أنموذج مثالي للنظم التعليمي والإرشادي، الذي اتخذ من بحر الرجز وسيلة للتعبير عن المعارف البحرية، فقد استعرض ابن ماجد في أرجوزته التي اشتملت على نحو ١٠٨٢ بيتا معظم تجاربه الميدانية في عرض البحر، صاغها بأسلوب سلس وفق منهج علمي واضح، وصنف ابن ماجد أرجوزته في أحد عشر فصلا؛ تضمنت مبادئ علم البحر وأصوله وقواعده، وأصول علم الفلك الملاحي، وكيفية الاهتداء بالنجوم، والاستفادة من الأنواء ومنازل القمر، والحسابات المتعلقة بكل ذلك.

ونختار من تلك الأرجوزة الأبيات التالية التي تصف الطريق في البحر الأحمر إلى السويس:

وديرةُ البرِّ إلى القصيرِ ثمَّ السُّوَيْسِ ما ذَكَرْها غيري
منَ الربابين ولا المَعَالِمَه لأَنَّها ما هِيْ طريقٌ سَالِمَه

تَمْنَعُكَ الشِّعبان أنْ تجري		في فردِ خنٍّ هاك صِدْقَ خبري
أمَّا طريقُ يا أخي الباحَه		منْ حدِّ سيبان بها السَّمَاحَه
لراسْ أبي مُحَمَّدٍ مجراها		في البارِ والنَّاقَةِ لا سواها
رأسُ أبي مُحَمَّدٍ للعينِ		رأسٌ كبيرٌ بَيْنَ غُبَّتَيْنِ
غَبَّةِ إيلا ثمَّ غُبَّة الطُّوْر		إذِ آسْمُها بَيْنَ المَلا مَشْهُورْ
ومنْهُ للسُّوَيْس خُذْ أوْصَافي		بأزْيَب مُوْلِمِ يَبْقَى صافي

وقد نشرت أرجوزة "حاوية الاختصار" أربع مرات؛ الأولى مصورة عن نسخة باريس مع تحليل ودراسة قام بها جبرائيل فران عام ١٩٢٣م، والثانية على يد إبراهيم خوري في مجلة الدراسات الشرقية التي تصدر عن المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٧٠م، ثم أعاد نشرها ضمن سلسلة الملاحة العربية الفلكية الصادرة عن مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة عام ١٩٩٥م، وقد ضمّن ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية. أما النشرة الرابعة فكانت على يد المرحوم الأستاذ حسن صالح شهاب في مسقط ١٩٩٣م.[١]

(١) عن مخطوطات أحمد بن ماجد، انظر ذلك مفصلاً في كتاب د. عبدالله يوسف الغنيم، المخطوطات الجغرافية في مكتبة البودليان أكسفورد ٢٠٠٦م، ص ٢٦٧ وما بعدها.

ونكتفي بهذه النماذج من المنظومات التعليمية التي اخترناها من التراث العلمي العربي، وهي كما يرى القارئ – تساعد على تيسير سبل التعلم والإلمام بقواعد العلوم والفنون في إحكام دقيق وإنجاز بليغ، وهي مع ذلك لا تحتاج إلى دواة أو ورق، بل تحفظ في الصدور وتستظهر عند الحاجة إليها، ويحتج بها عند الاختلاف في الرأي، ولما كان الإنسان بطبعه مفطوراً على حب الشعر وقرضه، فقد انتشرت هذه المنظومات، وتداولها طلبة العلم، وأثروا علمهم ومحفوظاتهم بها.

ومن المفيد أن نحيل هنا إلى البحث الذي كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور جلال شوقي، الذي صدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٩٠م، وهو عمل يقع في نحو ٩٣٠ صفحة، جمع فيه المؤلف مجموعة طيبة من نصوص المنظومات التعليمية العربية مع دراسة وثائقية لها، وندرك من خلال هذا الكتاب قيمة هذا الجانب التعليمي والتثقيفي في دفع عجلة العلم العربي إلى ما وصلت إليه من ارتقاء وتقدم، كان لهما الأثر البالغ في رقي المجتمع وتطوره وتربعه على عرش المعرفة والثقافة في عصور أوربا المظلمة.

(٧)

الكتب والموسوعات ودورها في تيسير سبل التعلم

حرص علماء العرب منذ القرن الثاني الهجري على جمع مفردات لغتهم وتسجيلها، وكان أن رحلوا إلى البادية، حيث بقيت العربية على نقائها القديم، لم تدخلها العُجْمة التي أصابت المدن والحواضر بعد الفتوح الإسلامية؛ ومن هؤلاء العلماء النضر بن شميل (ت٢٠٤هـ) وأبوعبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠) وعبدالملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦هـ). وقد صنف أولئك النفر من الأعلام مصنفات أشبه بالمعاجم المتخصصة، تناولوا فيها مختلف مظاهر البيئة البدوية؛ كالطير والوحش والنبات والمواضع، وغير ذلك من المصنفات التي أصبحت المصدر الأساسي للمعاجم اللغوية التي ظهرت فيما بعد؛ من مثل معجم "العين" للخليل بن أحمد و"تهذيب اللغة" لمحمد بن أحمد الأزهري و"الصحاح" لإسماعيل بن حماد الجوهري.

وظهرت في وقت لاحق المعاجم المختصة بالبلدان؛ من مثل

كتاب "الأمكنة" لنصر بن عبدالرحمن الإسكندري، و"معجم ما استعجم" لأبي عبيد البكري، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي. وجميع هذه الكتب والمصادر أصبحت من الأدوات المهمة للمعلمين والمتعلمين،وما زالت المعاجم العربية القديمة وتلك المصنفات الأولى التي قام بها العلماء تمثل مصدراً لا غنى عنه للباحثين في وقتنا الحاضر، وكانت فاتحة لعدد من المؤلفات التي تناولت مختلف جوانب الحياة على النحو الموسوعي، وسنضرب لذلك مثالين:

(١) كتاب الحيوان لعمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٥هـ):

ولد الجاحظ في مدينة البصرة ، ويعد من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي الثاني. وقد أشرنا آنفاً إلى ثلاثة من كتبه؛ هي "رسالة المعلمين"، وكتاب "الدلائل والاعتبار"، و"التربيع والتدوير"، وله عدد من الكتب والرسائل، لقيت جميعها اهتماما كبيراً من قبل الباحثين والدارسين؛ من بينها كتاب "البيان والتبيين" وكتاب "البخلاء".

ويعد كتاب "الحيوان" للجاحظ موسوعة شاملة في علم الحيوان، فقد اهتم الجاحظ، إلى جانب ما جاء في التراث اللغوي

والأدبي عن الحيوان، بطبائع الحيوان وأحواله، معتمدا على المصادر القديمة وعلى ملاحظاته الشخصية القيمة، وواضح من مقدمة الجاحظ للكتاب أنه قد وضعه ليكون مقبولاً من جميع مستويات القراء؛ "يشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ،ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المُجدّ ذو الحزم..".

وبشكل عام، يمثل هذا الكتاب أنموذجا واضحاً ورائداً للموسوعات المتخصصة، جاء بأسلوب سهل وعبارات واضحة تميزت بها كتابات الجاحظ، ومع الأسف الشديد لم تلق المادة العلمية الواردة في هذا الكتاب الاهتمام المأمول من قبل الدارسين العرب.

(٢) كتاب «سياسة الصبيان وتدبيرهم» لابن الجزار (٢٨٥ - ٣٦٩هـ):

ولد أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن خالد، المعروف بابن الجزار القيرواني، في مدينة القيروان بتونس لأسرة اشتهر أفرادها بالطب؛ فقد اشتغل والده بالطب مثل أخيه أبي بكر عم أحمد بن الجزار، وعنهما أخذ الطب، وتتلمذ أيضاً على يد إسحاق بن سليمان.

ولابن الجزار مؤلفات كثيرة، وله بجانب الكتب الطبية مؤلفات في التاريخ والأدب والفلسفة، وقد فُقِد عدد من أعماله، وقد أحصى الأستاذ محمد الحبيب الهيلة نحو ٤٤ مؤلفا مفقوداً؛ منها كتاب في الأحجار، وكتاب في عجائب البلدان، وكتاب في طبقات القضاة، وكتاب التعريف في أخبار أفريقية، بالإضافة إلى عدد من الكتب الطبية. وكل ذلك يدل على ثقافته الموسوعية التي بلغت به شهرة واسعة.

وقد عَرَفَتْ كتب ابن الجزار طريقها إلى أوروبا منذ القرن العاشر الميلادي، من خلال ترجمة قسطنطين الأفريقي لعدد من مؤلفات العرب الطبية إلى اللاتينية، ومن بينها أحد أهم مؤلفات ابن الجزار، وهو كتاب "زاد المسافر وقوت الحاضر"، الذي ظل لفترة طويلة من مواد التدريس في الجامعات الأوروبية. ودليل أهميته انتشار نسخه المخطوطة في معظم أنحاء العالم. وقد طبعت ترجمته اللاتينية لأول مرة بمدينة "لوقدم" عام ١٥١٠م، ثم طبع في مدينة بازل Basil في السنة التالية، وكتبت عنه أبحاث كثيرة في الدوريات العلمية.

ومن كتب ابن الجزار التي وصلتنا؛ كتاب "الاعتماد على الأدوية المفردة"، وكتاب "طب الفقراء"، وكتاب "العطورات في فنون الطب والعطر"، وكتاب "في المعدة ومداواتها"، وجميعها قد تمت طباعتها ونشرها.

ويعد كتاب ابن الجزار "سياسة الصبيان وتدبيرهم" موسوعة متخصصة في أمراض الأطفال والعناية بهم، يتضمن ٢٢ باباً في مختلف ما يعرض للأطفال، وما ينبغي القيام به لحفظ صحتهم، ويبدأ بصحة الأم قبل الحمل، وفي أثنائه، ثم تدبير المولود بعد خروجه من الرحم (غذاؤه، مضجعه، تنظيفه، إرضاعه، وقت غذائه.. إلخ)، وَصِفَةَ المرضعة، وصفة اللبن، والأطعمة والأشربة التي تحتاج إليها ليكون لبنها صحيحاً. ثم فصَّل الأعراض والأمراض التي تعرض للصبيان في مراحل نموهم المختلفة والعلاجات الواجب استخدامها. وغير ذلك من الأمور التي تجعل من ذلك الكتاب بحق مرجعا لا غنى عنه في كل بيت، وساعد على ذلك سهولة عبارته وترتيب أفكاره.

والجدير بالذكر أن أبا بكر الرازي هو أول من ألف رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم، وقد فقدت النسخة العربية من تلك الرسالة، وبقيت لنا ترجمتها اللاتينية التي طبعت لأول مرة عام ١٨٤١م. ومع أن أبواب الكتابين فيها جانب من التشابه، فإن ابن الجزار ذكر في مقدمته أنه لم ير لأحد من الأوائل المتقدمين كتابا كاملاً شافياً.

وقد اعتنى بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ محمد الحبيب الهيلة؛ فنشره أولاً عام ١٩٨٣م اعتماداً على نسخة خطية واحدة كانت محفوظة في مكتبة مارشيانا بالبندقية، وكانت أول طبعة عربية لكتاب من كتب ابن الجزار، ثم أعاد طباعته بعد نحو أربعين عاماً (٢٠٠٨م) بعد أن حصل على نسخة أخرى من مقتنيات الأستاذ محمد المنوني- رحمه الله.

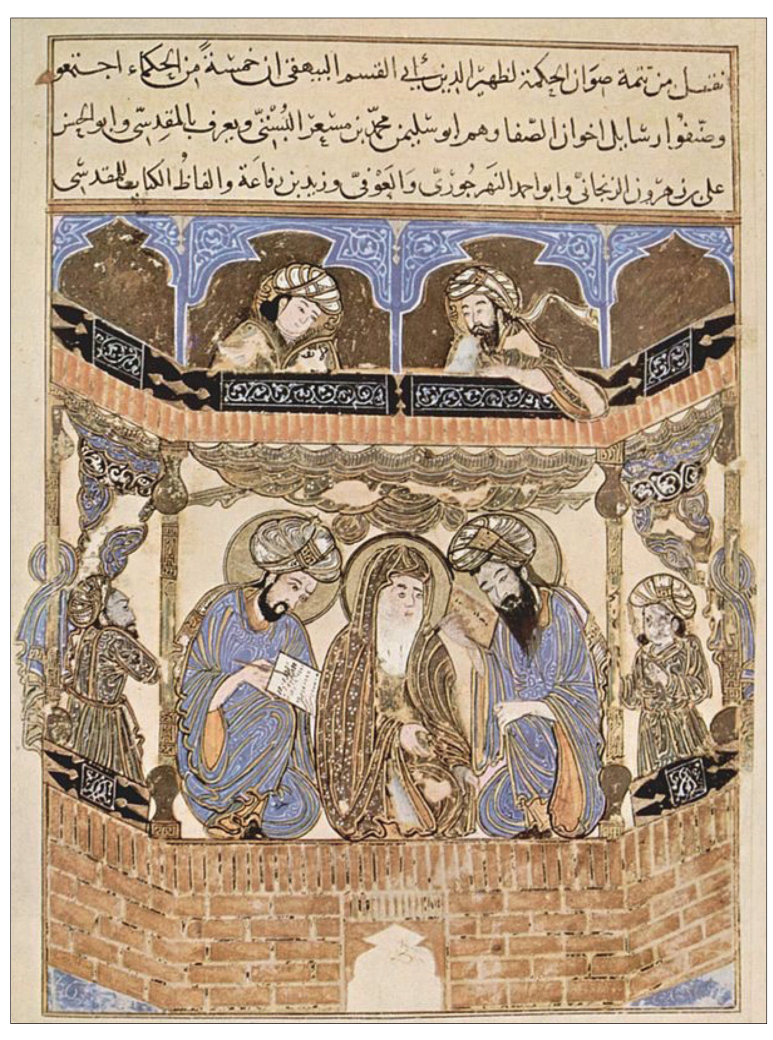
(٣) رسايل إخوان الصفا وخلان الوفا:

دراسات لجماعة من العلماء الذين عاشوا في أواسط القرن الرابع الهجري، شكلت رسائلهم في مجموعها موسوعة متكاملة لها نظرة

فلسفية إلى الكون والنفس، وقد استمدت هذه الرسائل مصادرها من فلاسفة اليونان والفرس والهند، وهم يأخذون من كل مذهب بطرف.

وتتألف الرسائل من أربعة أقسام، يحتوي القسم الأول على ١٤ رسالة تعالج مبادئ الرياضيات والمنطق، ويعالج القسم الثاني، وهو ١٧ رسالة، العلوم الطبيعية، ويبحث القسم الثالث ما وراء الطبيعة وعلم النفس، ويشتمل على عشر رسائل. أما القسم الأخير فيشتمل على التصوف والتنجيم والسحر، وعدد رسائله ١١ رسالة.

وتناولت تلك الرسائل مختلف صنوف المعرفة؛ كالفلك والطب والجغرافيا والموسيقى والفلسفة وغيرها، مما لا يستغنى عنه طالب العلم، وخاصة وفق مناهج ذلك الزمان التي تقوم على المعرفة الموسوعية أو الشاملة. ولو أننا بحثنا – على سبيل المثال – ما يستفيده طالب العلم من المعلومات الجغرافية من هذه الرسائل لوجدنا ذلك مبثوثاً في عدة رسائل؛ أولها الرسالة الخامسة من القسم الأول المتعلق بالجانب الرياضي والفلسفي، وهي بعنوان



إخوان الصفا كما تمثلهم إحدى المخطوطات

"رسالة في جغرافيا، بمعنى صورة الأرض والأقاليم، والبيان بأنها كريَّة الشكل بجميع ما عليها من الجبال والبحار والبوادي والأنهار والمدن والقرى، وكيفية تخطيطها مسالكها وممالكها".

وتشتمل الرسالة الرابعة من القسم الثاني، المسماة "بالآثار العلوية"، على مجموعة من الحقائق عن كيفية حوادث الجو وتغيرات الهواء من النور والظلمة والحر والبرد وتصاريف الرياح من البخارات والدخانات الصاعدة في الهواء من البحار والأنهار، وما يكون منها من الغيوم والضباب والأنداء والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبرد والهالات وقوس قزح والشهب وذوات الأذناب وما شاكل ذلك.

كما تشتمل رسائل أخرى على كيفية تكوُّن المعادن والجواهر المعدنية، وأجناس النبات وأنواعها وأصناف الحيوانات واختلاف صورها وطبائعها، وعلاقة البيئة بالإنسان وبأجناس النبات والحيوان.

ويقاس على ما تقدم ما ورد في بقية الرسائل في مجالات العلوم المختلفة، وكل ذلك يضع أساساً جيدا لطلبة العلم ينطلقون بعده للتخصص في المجالات التي يرونها مناسبة لميولهم واتجاهاتهم.

ولا يخفى ما لعلم الجغرافيا من أثر في تنمية ثقة طالب العلم وإمداده بمعلومات واسعة عن أحوال الشعوب الأخرى؛ عاداتها وطبيعة أراضيها ومواردها الاقتصادية، ولهذا فقد اهتم العرب بهذا العلم اهتماماً خاصاً، وتعددت فروع هذا الجانب المعرفي؛ فظهرت كتب المسالك والممالك وكتب البلدان التي تناولت وصفاً إقليمياً عاماً لبقاع الأرض،أو وصفاً طبوغرافياً تفصيليا لمنطقة بعينها مثل كتب الخطط. وظهرت مجموعة من الرسائل التي تناولت الجواهر والأحجار والزلازل وغير ذلك من الظواهر الطبيعية.

وساعدت الفتوح الإسلامية والحج والتجارة على ازدهار كتب الرحلات، كما ظهرت طائفة أخرى من الكتب التي تناولت العجائب والغرائب مثل "عجائب المخلوقات" للقزويني(٦٠٠

- ٦٨٢هـ)، و"نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" للدمشقي المعروف بشيخ الربوة (٦٥٤ - ٧٢٧ هـ)، و"خريدة العجائب وفريدة الغرائب" لابن الوردي، وغيرها من الكتب التي تناولت وصف البلدان وأهلها وحيوانها ونباتها، مع التركيز على الجوانب الغريبة والعجيبة لغرض جذب انتباه القارئ ، ودفعه إلى مزيد من البحث والنظر في هذه الأمور.



(٨)
التعليم الخاص

نعني بالتعليم الخاص هنا تعليم أبناء الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة الذين يريدون تعليماً مركزاً وخاصاً، يؤهلهم لطبيعة تلك المهام التي ستوكل إليهم، وعادة ما ينتدب لهذه المهمة كبار العلماء والبارزين في مجالات اللغة، والأدب، والفقه، والحساب، وغير ذلك مما يحتاج إليه التأهيل العلمي في ذلك الوقت.

ويطلق على المعلم الذي يقوم بهذه المهمة اسم "المؤدب"،وهو لفظ يدل على منزلة أعلى من المعلم العام أو معلم الصبيان الذي يتخذ عادة مكاناً خاصا ويجتمع إليه عدد من الطلاب.وإن كانت بعض المصادر لا تفرِّق بين لفظي "المؤدب"، و"المعلم"، وهذا لا يعني أنه لا يوجد من بين معلمي الصبيان من أبناء العامة من كان متقدما في العلم، شيخا في مجاله العلمي، ومثال ذلك أبوعمرو الشيباني، إسحاق بن مرار (ت٢٠٦هـ)، وقد كان مؤدبا لأولاد

ناس من بني شيبان ونسب إليهم. وكان راوية بغداد في عهده، واسع العلم باللغة والشعر، ثقة، كثير الحديث، كثير السماع، وله كتب كثيرة في اللغة[1].

وبالمثل قد يكون من بين المؤدبين المختصين بتأديب أبناء الأمراء في سابق عهده معلما في كتّاب، ومن هؤلاء – على سبيل المثال – أبوجعفر محمد بن عمران الضبي الذي كان مؤدب عبدالله ابن المعتز.[2]

وقد ظهرت في عهد بني أمية شخصية "المؤدب"؛ أي المعلم والأستاذ، الذي كان يختاره الخلفاء والأمراء ومن في حكمهم لتعليم أبنائهم، وكان ذلك التعليم شاملاً لكل علوم العصر بلا استثناء، واتسمت وظيفة المؤدب بأنها وظيفة تربوية وتعليمية وتثقيفية هدفها تهذيب السلوك وغرس القيم الحميدة[3] وتقديم مستوى رفيع من

---

(١) القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة عن أنباء النُحاة،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة، ١٩٨٦م، (٢/ ٢٦٤).
(٢) المصدر السابق : (٣/ ١٧٩)
(٣) عبدالله خضر أحمد، الأدب العربي الحديث ومذاهبه، القاهرة، ٢٠١٧م، ص١١٩.

الثقافة العامة لأبناء تلك الفئة المقتدرة من المجتمع، وكان ذلك يقتضي من المؤدب أن يكون ملازماً لأبناء الخلفاء أو الأمراء، فيكون قريباً من المتأدب، يلازمه في أغلب أوقاته، بل إن بعض الخلفاء خصصوا سكناً خاصاً لمؤدبي أولادهم في داخل قصورهم. وكان المؤدب يتقاضى مكافأة مجزية لقاء عمله. ولهذا يحرص المعلمون على الوصول إلى هذه المرتبة المرموقة بين أقرانهم.

أبرز المؤدبين في عهدي الدولتين الأموية والعباسية:

حرص خلفاء بني أمية وبني العباس على أن يقوم بمهمة المؤدب لأبنائهم خيرة العلماء المميزين في العلوم الشرعية واللغوية، فقد اختار معاوية بن أبي سفيان رجلا عالما، هو دغفل بن حنظلة الدوسي ليعلم ابنه يزيد، وقال له بعد أن سأله عن علمه وعرف مكانته: "انطلق إلى يزيد فعلِّمه أنساب الناس، وعلمه النجوم، وعلِّمه العربية. وانتدب عمر بن عبدالعزيز صالح بن كيسان لتأديب ولده،وكان صالح جامعاً من الحديث والفقه والمروءة، ومن ثقات المحدثين. أما عبد الملك بن مروان فقد اختار عامر بن شراحيل الشعبي الذي قال عنه الإمام الذهبي إنه كان إماماً حافظاً،فقيهاً،متفنناً،ثبْتاً،متقناً.

وكذلك كان الأمر بالنسبة لخلفاء بني العباس، فقد اختاروا أفضل العلماء لتأديب أبنائهم،فقد استقدم الخليفة المهدي علي بن حمزة الكسائي لتأديب ولده هارون الرشيد،ثم الأمين من بعده. وقد كان الكسائي إمام الكوفيين في اللغة والنحو وسابع القراء السبعة. وكَلَّف الخليفة المتوكل محمد بن عبدالله النحوي المعروف بابن قادم، وهو أستاذ ثعلب لتعليم ابنه المعتز قبل ولايته .

وفي الدولة العربية بالأندلس كان محمد بن أرقم النحوي الأندلسي مؤدباً لأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ،وكان أبوه أيضاً مؤدباً لأولاد ملوك الأندلس[1]، ومن مؤدبي أولاد ملوك بني أمية بالأندلس أيضا محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرياحي وأصله من جَيَّان، وكان ذا سمت وفضيلة ونزاهة نفس وكرم، ولاَّه المستنصر الأموي أمر الديوان والاستيفاء[2].

(١) القفطي، إنباه الرواه، (٣/ ٦٩).
(٢) القفطي (٣/ ٢٢٩،٢٣٠) وقد جاء في هامش الأصل "إنما ولاّه المستنصر الأموي مقابلة الدواوين والنظر فيها، يعني الكتب التي جمعها، والمصنفات في سائر العلوم التي لم تجتمع لملك من ملوك الإسلام قبله ولا بعده،ولا قدر لها، لا ماظنه المصنف، رحمه الله".

وكان موسى بن عبدالله الطرزي النحوي الأفريقي - وهو من مدينة طرزة من مدائن إفريقية - يؤدب أولاد السلاطين هناك،وكان شاعراً مجيداً عفيفاً صالحاً[1].

أما خاصة الناس من الوزراء والقادة والقضاة وغيرهم فقد اهتموا أيضا بتعليم أبنائهم، وتحفل كتب التراجم بأسماء المؤدبين المرموقين الذين قاموا بهذه المهمة، ومن هؤلاء أبو عبيد القاسم بن سلام، الذي كان مؤدباً لآل هرثمة، وكان هرثمة بن أعين من كبار القادة في عهديْ الرشيد والمأمون، والقاسم بن سلام كان من أعلام علماء عصره، واسع العلم بالعربية والفقه، وله مصنفات في كل في من العلوم والأدب[2]. ومن هؤلاء أيضا محمد بن زياد بن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) الذي كان مؤدباً لولد سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم، الذي كان أحد قادة الدولة العباسية،وكان عالما بالعربية والحديث. أما ابن الأعرابي فكان أحد أعلام الكوفة، له مصنفات عديدة، ولم ير أحد في علم الشعر أغزر منه.[3]

(١) القفطي، (٣/ ٣٣١).
(٢) القفطي، (٣/ ١٣).
(٣) القفطي ، (٣/ ١٣٣).

اختيار المؤدب:

يراعي في اختيار المؤدب مجموعة من الأمور التي تتوافق مع المستوى العام للخاصة؛ سواء أكان من الأمراء أم الوجهاء أم كبار رجال الدولة؛ فيكون عارفا بنظام البلاط أو البيوت التي يؤدب فيها، لائق المظهر، مهذبا في تعامله مع الناس، ويكون ذا خبرة سابقة بالتدريس، وله مكانة علمية، ومؤلفات في فنون متعددة تفوَّق فيها على أقرانه من العلماء.

ويخضع المؤدب للاختبار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وتتم مراقبته، وتقدير مقدار تحصيل المراد تأديبه. وقد سجلت المصادر العربية صورة ذلك الاختبار؛ قال المازني: قال له الواثق: إن هاهنا قوماً يختلفون إلى أولادنا فامتحنهم، فمن كان منهم عالماً ينتفع بعلمه ألزمناه إياهم، ثم أمر فجُمعوا، فامتحنتهم، فما وجدت طائلا، وخافوا، قلت: يفضل بعضهم بعضاً، وكل يُحتاج إليه، فقال: "لله درك يا بكر!، وأمر لي بصلة جزلة، وأجرى لي في كل شهر مائة دينار، فكنت بحضرته"[1].

---

(١) القفطي، (١/ ٢٨٦)، والمازني هو بكر بن محمد بن بقية، روى عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وكان من فضلاء الناس ورواتهم وثقاتهم.

ومثال آخر من بلاد الأندلس هو الحسين بن الوليد بن نصر المعروف بابن العريف النحوي الأديب والشاعر، وكان مقدماً في العربية إماماً فيها عارفاً بصنوف الآداب، اختاره المنصور محمد بن أبي عامر صاحب الأندلس مؤدبا لأولاده، ولم يتم له ذلك إلا بعد أن حضر مجالسه ومناظراته مع أبي العلاء صاعد اللغوي البغدادي.[١]

ولا يكتفى الخلفاء بتسليم أولادهم إلى المؤدب ، بل يتابعون بأنفسهم تقدمهم بين وقت وآخر، فالخليفة المأمون كان يأمر برفع الألواح والأوراق الخاصة بأولاده كل خميس ليراها ويتابع تقدمهم في التعليم ، وهكذا فعل الخليفتان المكتفي والمعتز .[٢]

وكان الخلفاء ينصحون المؤدبين ويوجهونهم إلى منهج التأديب المطلوب منهم، ومن أشهر النصائح والوصايا في هذا المجال وصية

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ١٩٩٣م،(٣/ ١١٦٤).

(٢) أمينة أحمد حسن، "رسالة المعلم في الإسلام"، أبحاث مؤتمر المناهج التربوية والتعليمية في ظل الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة ، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢٦.

عبدالملك بن مروان لعامر بن شراحيل الشعبي مؤدب ولده، يقول فيها:

"إني اخترتك لتأديب ولدي ،وجعلتك عيني عليهم وأميني، فاجتهد في تأديبهم ونصيحتي فيما استنصحتك فيه من أمرهم، علِّمهم كتاب الله عز وجل حتى يحفظوه، وقفهم على ما بيّن الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه، وخذهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، ورِّوهم من الشعر أعفّه، ومن الحديث أصدقه، وجنبهم محادثة النساء، ومجالسة الأظناء، ومخالطة السفهاء، وخوّفهم بي، وأدبهم دوني، ولا تخرجهم من عِلم إلى عِلم حتى يفهموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلةً للفهم، وأنا أسأل الله توفيقك وتسديدك". ثم أسمى له في الرزق، وبدأه بصلة حسنة.(١)

وقد تكررت نصائح ووصايا الخلفاء بما لا يخرج عن المعنى العام الذي أراده الخليفة عبدالملك بن مروان؛ نجد ذلك عند هارون

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، كتاب جمل أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، الجزء السابع، ص٢٠٧.

الرشيد، وعند غيره من الخلفاء، ورجال الدولة. ولا نريد في بحثنا هذا استقصاء العلاقة بين الطرفين، إذ تكفي الأمثلة في بيان ذلك.

وقد كان هذا الأسلوب في التعليم سبباً في تخريج عدد من القادة المثقفين ثقافةً واسعة، ولهم دراية شاملة بما هم مقبلون عليه من المهامّ، والقارئ لسير خلفاء الدول الإسلامية في عصورها الزاهرة ومجالسهم العلمية يدرك قيمة ذلك التعليم في تقويم الفرد وتكوين شخصيته القيادية والعلمية.

ملحق
في سياسة الرجل ولده

مستخرج من كتاب «السياسة» للشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (تعليق وضبط علي محمد إسبر، دمشق ٢٠٠٧م)

إنّ من حق الولد على الوالد إحسان تسميته ثم اختيار ظئره[١] كي لا تكون حمقاء و لا ورهاء[٢] ولا ذات عاهة، فإن اللبن يعدي كما قيل. فإذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة، فإنّ الصبي تتبادر إليه مساوئ الأخلاق، وتنثال عليه الضرائب الخبيثة، فما تمكّن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة، ولا عنه نزوعاً، فينبغي لغُنم الصبي أن يجنبه مقابح الأخلاق، وينكّب عنه معايب العادات بالترهيب، والترغيب، والإيناس، والإيحاش، وبالإعراض والإقبال، وبالحمد مرة، وبتوبيخ مرة أخرى ما كان كافياً. فإن

(١) المرضع غير ولدها.
(٢) الحمقاء

احتاج إلى الاستعانة باليد لم يُحجم عنه، وليكن أول الضرب قليلاً موجعاً، كما أشار به الحكماء قبلُ، بعد الإرهاب الشديد وبعد إعداد الشُّفعاء؛ فإنَّ الضربة الأولى إذا كانت موجعةً ساء ظنُ الصبي بما بعدها واشتد منها خوفه، وإذا كانت الأولى خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به.

فإذا اشتدت مفاصل الصبي، واستوى لسانه، وتهيأ للتلقين، ووعى سمعه، أخذ في تعلم القرآن، وصُوّر له حروف الهجاء، ولُقِّن معالم الدين. وينبغى أن يروي الصبي الرجز ثم القصيدة، فإن رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن؛ لأن بيوته أقصر ووزنه أخف، ويبدأ من الشعر بما قيل في فضل الأدب، ومدح العلم، وذم الجهل، وعيب السخف، وما حَثَّ على بِرِّ الوالدين، واصطناع المعروف، وقِرى الضيف، وغير ذلك من مكارم الأخلاق .

وينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين، بصيراً برياضة الأخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان، وقوراً رزيناً بعيداً من الخفة والسخف، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي، غير كزٍّ ولا

جامد، بل حلوا لبيباً ذا مروءة ونظافة ونزاهة، قد خدم سراة الناس، وعرف ما يتباهون به من أخلاق الملوك و يتعايرون به من أخلاق السَّفلة، وعرف آداب المجالسة وآداب المؤاكلة والمحادثة والمعاشرة.

وينبغي أن يكون مع الصبيّ في مكتبهِ صبيةٌ من أولاد الجِلّة[1]. حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم، فإن الصبي عن الصبي ألقن، وهو عنه آخذُ وبه آنسُ. وانفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلبُ الأشياء لضجرهما، فإذا راوح المؤدب بين الصبي والصبي كان ذلك أَنفى للسآمة، وأبقى للنشاط، وأحرص للصبيّ على التعلُّم والتخرّج، فإنه يباهي الصبيان مرة، ويغبطهم مرة، ويأنف من القصور عن شَأْوهم مرةً. ثم يحادث الصبيان؛ والمحادثة تفيد انشراح العقل، وتحل محلُّ منعقد الفهم؛ لأن كل واحد من أولئك إنما يتحدث بأعذب ما رأى وأغرب ما سمع، فتكون غرابة الحديث سبباً للتعجُبِ منه، والتعجب منه سببا لحفظه، وداعياً إلى التحدث به. ثم إنهم يترافقون ويتعارضون الزيارة ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق، وكل ذلك من أسباب

(١) جمع جليل، وهو العظيم؛ يريد أولاد الطبقة المتميزة بتربيتها وأخلاقها.

المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة. وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم.

وإذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يُراد أن تكون صناعته مُوجهة لطريقه. فإن أراد به الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه ذلك، وطورح الحساب ودُخل به الديوان وعُني بخطه. وإن أُريد أُخرى أُخذ به فيها، بعد أن يعلم مدبّر الصبي أن ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبه، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة إذن ما كان أحد غُفْلاً من الأدب وعارياً من صناعته، وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات . ومن الدليل على ما قلنا سهولة بعض الآداب على قوم وصعوبته على آخرين، ولذلك نرى واحداً من الناس تؤاتيه البلاغة، وآخريؤاتيه النحو، وآخر يؤاتيه الشِّعر، وآخر يؤاتيه الخُطب، وآخر النسب. ولهذا يقال بلاغة القلم

وبلاغةُ الشِّعر.فإذا خرجت عن هذه الطبقة إلى طبقة أُخرى وجدت واحداً يختارُ علم الحساب، وآخر يختارُ علم الهندسة، وآخر يختار علم الطب، وهكذا تجد سائر الطبقات إذاً طبقة طبقة حتى تدور عليها جميعها. ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات أسباب غامضة وعلل خفيَّة تدقُّ على أفهام البشر، وتلطف القياس، لا يعلمها إلا الله جلَّ ذكره.

وربما نافر طباع إنسان جميع الآداب والصنائع فلم يعلق منها بشيء . ومن ذلك أنَّ أُناساً من أهل العقل راموا تأديب أولادهم، واجتهدوا في ذلك، وأنفقوا فيه الأموال، فلم يدركوا من ذلك ما حاولوا. فلذلك ينبغي لمدبِّر الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولاً طبع الصبي، ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك، فإذا اختار له إحدى الصناعات تعرَّف قدْر ميله إليها ورغبته فيها، ونظر هل جرت منه على عِرْفان أم لا؟ وهل أدواته وآلاته مساعدةٌ له عليها أم خاذلة؟ ثم يبتُّ العزم فإنَّ ذلك أحزم في التدبير وأبعد من أن تذهب أيام الصبي فيما لا يؤاتيه ضياعاً.

فإذا وغل الصبي في صناعته بعض الوغول فمن التدبير أن يُعرض للكسب، ويُحمل على التعيُّش منها، فإنه يحصل في ذلك له منفعتان؛ إحداهما إذا ذاق حلاوة الكسب بصناعته وعرف غناها وجَدَاها عظيمين لم يضجع[1] في إحكامها وبلوغ أقصاها ؛ والثانية أنه يعتاد طلب المعيشة قبل أن يستوطئ حال الكفاية، فإنَّا قلَّ ما رأينا من أنباء المياسير من سلم من الركون إلى مال أبيهِ وما أعدَّ له من الكفاية.

فلما عوَّل على ذلك قطعه عن طلب المعيشة بالصناعة وعن التخلي بلباس الأدب. فإذا كسب الصبي بصناعته فمن التدبير أن يزوَّج ويُفْرَد رحله.

---

(١) لم يقعد عن السعي فيها.

الخاتمة

من المهم أن نبيّن أننا لا نزعم أننا نريد من وراء هذا البحث أن نتقيد بما فعله القدماء أو نقتفي آثارهم دون إدراك لمتغيرات العصر والتطورات الحادثة على مستوى التعليم ومناهجه وأساليبه في العالم؛ فالغرض من هذا البحث هو تسليط الضوء على مرحلة مهمة من مراحل نهضتنا العلمية، لابد أن نعود إليها لنستخلص منها بعض العبر التي قد نستفيد منها ونحن نبني ونطور تعليمنا الحديث. لأن المتابع لمراحل التغيير في مناهجنا يلاحظ أنها لم تأخذ في الاعتبار من الناحية العملية تلك التجارب الثرية التي تمخضت عنها نتائج ملموسة، فعلى الرغم من اهتمام واضعي المناهج بالتأكيد على أن الحضارة العربية والإسلامية أحد المصادر التي يتم الاعتماد عليها فإن أولئك الذين يتصدون لذلك معرفتهم محدودة بالتراث العربي والحضارة الإسلامية، ولم يتحروا معرفة الأسس والمناهج المتبعة قديماً، ولم يسألوا أنفسهم قط، وعن حق: "كيف علم القدماء أبناءهم"؟.

ونخلص من مراجعة ذلك التراث التربوي إلى مجموعة من الحقائق التي أكدتها الرسائل والكتب التي وصلتنا بشأن المعلمين والمتعلمين أو المدرس والطالب، يمكن إيجازها فيما يلي:

١) يتهم بعض المحْدَثين التعليم عند القدماء بأنه يكاد يقتصر على التلقين والحفظ، وهذا يخالف ما ورد من توجيهات قديمة في هذا المجال؛ فهناك وعي واضح بعملية التعليم التي تقوم على توازن دقيق بين عمليتي الحفظ والاستنباط،ويؤكد ذلك قول الجاحظ: "إن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدا، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين"، ويرى أيضاً "أن من أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ".

وحفلت كتب التراث العربي بالأسئلة حول مختلف الظاهرات البيئية والكونية التي تثير فكر الطالب وتدفعه نحو استجلاء الأسباب والعلل، ونجد ذلك واضحاً عند الجاحظ وعند ابن الطفيل الذي بنى قصته "حي بن يقظان" على إثارة كوامن الفكر لدى الإنسان، مؤكداً أهمية العقل والتجربة التي أسهمت في ترقّيه في أطوار حياته وفي تطوره عبر الأزمنة التاريخية.

٢) تحضّ الكتب والوصايا على الاطلاع على بعض الكتب الأصول التي لابد للطالب أن تكون مرجعه في طلب العلم، مع الحرص على أن يكون للطالب شيخ يتلقى عنه ويسترشد بعلمه، وحَذَّر بعض الكتّاب من التشاغل بالتعبد من غير علم، فكثير من المتصوفة ضلوا طريق الهدى إذ عملوا بغيرعلم.

٣) حددت كتب المعلمين، وكتب "الحسبة" على وجه الخصوص، حقوق كل من المعلم والمتعلم وواجباتهما، وكذلك العلاقة بين المعلم وولي أمر الطالب، ووضعت الأحكام التي ينبغي أن يلتزم بها الجميع.

٤) المذاكرة والمناظرة والمطارحة أمر لابد منه لطالب العلم، ولكن ينبغي أن تكون بالإنصاف والتأني والتأمل والبعد عن الشغب والغضب، ولا تحل المناظرة إن كان الهدف منها إلزام الخصم، وإنما تحل لإظهار الحق، ولا تجوز فيها الحيلة والتمويه.

٥) شغل النظم التعليمي حيزاً مهما في منهج التعليم، ويدلنا على ذلك تعدد مخطوطاته وانتشارها الكبير في معظم دور المخطوطات في العالم، وقد أحصى الأستاذ جلال شوقي مخطوطات "الأرجوزة

الياسمينية في علم الجبر والمقابلة" في العالم فكان ذلك نحو ٤٦ نسخة في مختلف مكتبات العالم، بخلاف شروحها التي تجاوزت ذلك العدد بكثير، وهو الأمر الذي يؤكد أهمية النظم التعليمي في النظام التربوي القديم.

وختاماً فإن مما يؤكد قيمة ذلك التراث الاهتمام الذي ناله من العلماء والمستشرقين منذ فجر عصر النهضة الأوربية، فقصة "حي ابن يقظان" قد ترجمت إلى اللاتينية، ونشرت مع النص العربي على يد "بوكوك" عام ١٦٧١م، وأعيد طبعها مرات بعد ذلك، وصدرت ترجماتها بالهولندية والأسبانية والألمانية والفرنسية. وكان لها أثرها في مناهج التربية الغربية، وفي الأعمال الثقافية والفنية. ورسالة "أيها الولد" للغزالي ترجمت إلى اللغة الألمانية، ونشرت في فيينا عام ١٨٣٨م، ونشرت بعد ذلك بعدة لغات. ونفس الأمر يقال عن أعمال ابن الهيثم وابن النفيس وابن الشاطر وغيره.

وما أحرانا اليوم أن نعود لمراجعة تلك الأعمال ونراجع مناهجنا ونعيد إلى العلم والتعليم العربي والإسلامي هويته ونظامه مع عدم الإخلال بمتطلبات العصر الحديث العلمية، والأخذ بالنافع من معطيات العلم العالمية.

المصادروالمراجع

- الآجري، أبو بكر محمد بن الحسين: "أخلاق العلماء"، مكتبة التراث الإسلامية، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- إخوان الصفا: "رسائل إخوان الصفا (١-٤)"، دار صادر بيروت، ١٩٥٧م.
- أمينة أحمد حسن، "رسالة المعلم في الإسلام"، أبحاث مؤتمر المناهج التربوية والتعليمية في ظل الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة، القاهرة، ١٩٩٠م.
- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف، "وصية أبي الوليد الباجي إلى ولديه"، دراسة وتحقيق جودة هلال عبدالرحمن، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد الثالث، ١٩٥٥م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى، كتاب جمل أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دارالفكر، بيروت، ١٩٩٦م.
- التفجروتي، أحمد بن محمد بن مسعود، «تنبيه الغافل عما يظنه عالم وهو به جاهل»، تحقيق جمعة مصطفى الفيتوري، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ثابت عيد، «أرجوزة ابن سينا في الطب»، القاهرة، ٢٠١٧م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، «رسالة التربيع والتدوير» ضمن سلسلة «رسائل الجاحظ»، نشر علي أبو ملحم، بيروت، ١٩٨٧م.

- الجاحظ، عمرو بن بحر، «رسالة المعلمين» تحقيق إبراهيم خليل جريس، عكا، ١٩٨٠م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب «الحيوان»، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢، القاهرة، ١٩٦٥م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب «الدلائل والاعتبار علي الخلق والتدبير»، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ابن الجزار، أبو جعفر أحمد، «سياسة الصبيان وتدبيرهم»، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيت الحكمة، تونس، ٢٠٠٩م.
- جلال شوقي، «العلوم العقلية في المنظومات العلمية» مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٩٠م.
- جلال شوقي، «منظومات ابن الياسمين، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٨م.
- ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم، «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم»، تحقيق السيد محمد هاشم الندوي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد»، تقديم محمد ناصر الألباني ومحمود مهدي إستانبولي، دمشق، ١٩٥٥م.
- ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد، «تحريرالمقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال»، تحقيق محمد سهيل إدريس، دار ابن كثير، دمشق ١٩٨٧م.

- حسن مولاي، «فهرس المخطوطات الإسلامية الموجودة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بالنيجر»، تحرير أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٦م.
- خضر إبراهيم سلامة، «فهرس مخطوطات المسجد الأقصى»، مؤسسة الفرقان، لندن، ١٩٩٦م.
- الخطيب البغدادي، «كتاب الفقيه والمتفقه»، تحقيق أبو عبدالرحمن ابن يوسف العزاوي، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٩٩١م.
- ابن سحنون، محمد بن أبي سعيد، «آداب المعلمين»، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، ١٩٧٢م.
- ابن سينا، أبو علي بن الحسين، كتاب «السياسة»، تعليق علي محمد إسبر، دمشق، ٢٠٠٧م.
- الشيزري، عبدالرحمن بن نصر، «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»، تحقيق السيد الباز العريني، بيروت (د.ت).
- الطهطاوي، رفاعة، «المرشد الأمين للبنات والبنين»، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف، «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله»، القاهرة (د.ت).
- عبدالعزيز عبدالله الخويطر، «أي بني (١-٥)»، الرياض، ١٩٩٣م.
- عبدالله الخالدي، «اللباب من كتاب العلم وآداب العالم والمتعلم المستخلص من إحياء العلوم»، بيروت، ١٩٩٨م.

- عبدالله خضر أحمد، الأدب العبري الحديث ومذاهبه، القاهرة، ٢٠١٧م.
- عبدالله زاهي الرشدان، «الفكر التربوي الإسلامي»، عمان، ٢٠٠٤م.
- عبدالله يوسف الغنيم، «المخطوطات الجغرافية العربية في مكتبة البودليان (جامعة أكسفورد)»، أكسفورد، ٢٠٠٦م.
- ابن العديم، عمر بن أحمد، «تذكرة الآباء»، تحقيق علاء عبدالوهاب محمد، القاهرة، ١٩٩٥م.
- علي باشا مبارك، «علم الدين (١-٤)»، الإسكندرية، ١٨٨٢م.
- علي علي سيد أحمد، «التعليم والمعلمون»، بيروت، ١٩٩٧م.
- عمر فروخ، «ابن طفيل وقصة حي بن يقظان»، بيروت، ١٩٥٩م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، «رسالة أيها الولد»، تحقيق علي محيى الدين القرة علي، القاهرة، ١٩٨٥م.
- القابسي، علي بن محمد، «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين»، تونس، ١٩٨٦م.
- القرشي، محمد بن محمد (ابن الإخوة)، «معالم القربة في أحكام الحسبة»، تحقيق محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٧٦م، ونشرة روبن ليفي، كمبردج، ١٩٣٨م.

- القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواه عن أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٨٦م.
- محمد بن إبراهيم العثمان، «النُبذ في آداب طلب العلم»، الكويت، ٢٠٠٢م.
- محمد أحمد عز الدين، «تربية الولد عند الغزالي»، دمشق، ١٩٦٣م.
- محمد بدر الدين الحلبي، كتاب «التعليم والإرشاد»، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٦م.
- محمد المنوني، «قبس من عطاء المخطوط المغربي»، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م.
- محمد منير سعد الدين، «دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين»، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن النفيس، علاء الدين، «الشامل في الطب»، تحقيق يوسف زيدان، أبوظبي، ٢٠٠٤م.
- ابن النفيس، علاء الدين، «المهذب في الكحل»، تحقيق محمد ظافر وفائي، الرباط، ١٩٨٨م.
- النووي، محيى الدين بن شرف، كتاب«العلم وآداب العالم والمتعلم»، تحقيق عبدالله بدران، ١٩٩٣م.
- ولد اباه، محمد المختار، «التربية الإسلامية بين القديم والحديث، ط٢، الرباط، ١٩٩٣م.

- ابن الهيثم، الحسن، كتاب «المناظر»، تحقيق عبدالحميد صبره، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.
- يحيى علي حسن مراد، كتاب «آداب العالم والمتعلم عند المفكرين المسلمين من منتصف القرن الثاني الهجري وحتى نهاية القرن السابع»، بيروت، ٢٠٠٢م.
- يوسف زيدان، «حي بن يقظان»، دارالشروق، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- يوسف زيدان، «فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا»، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- يوسف سركيس، «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، مصر، ١٩٢٨م.

الفهارس

أولاً - فهرس الأماكن

ثانياً - فهرس الأعلام

ثالثاً - فهرس الكتب



أولاً - فهرس الأماكن

ثانياً - فهرس الأعلام

ثالثاً - فهرس الكتب

الفهرس



هذا البحث

لا نزعم أننا نريد من وراء هذا البحث أن نتقيد بما فعله القدماء أو نقتفي آثارهم دون إدراك لمتغيرات العصروالتطورات الحادثة على مستوى التعليم ومناهجه وأساليبه في العالم؛ فالغرض من هذا البحث هو تسليط الضوء على مرحلة مهمة من مراحل نهضتنا العلمية، لابد أن نعود إليها لنستخلص منها بعض العبر التي قد نستفيد منها ونحن نبني ونطور تعليمنا الحديث. لأن المتابع لمراحل التغيير في مناهجنا يلاحظ أنها لم تأخذ في الاعتبار من الناحية العملية تلك التجارب الثرية التي تمخضت عنها نتائج ملموسة، فعلى الرغم من اهتمام واضعي المناهج بالتأكيد على أن الحضارة العربية والإسلامية أحد المصادر التي يتم الاعتماد عليها فإن أولئك الذين يتصدون لذلك معرفتهم محدودة بالتراث العربي والحضارة الإسلامية، ولم يتحروا معرفة الأسس والمناهج المتبعة قديماً، ولم يسألوا أنفسهم قط، وعن حق: "كيف علم القدماء أبناءهم"؟.